
روايات مصرية للجيب
زهور
٨
طيور بلا أجنحة
Looloo
www.dvd4arab.com
الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

طيور بلا اجنحة

بين الغيوم يجوب أجواز الفضاء
طير يشق عباب كون فى اشتهاء
حتى أتى يوم أحاط به البلاء
سقط الجناح وضاع فى القلب الرجاء
لكن قلب الطير لم يبغ العزاء

ولم تذق عيناه من دمع البكاء
فالنمر لا يحنو إن ذاق الدماء
والنسر لا يبكى وإن حرم السماء
(نبيل)

١ ـ النسر ..

« من نسر (سبعة) إلى القاعدة .. انتهت المهمة التدريبية .. أطلب الإذن بالهبوط » .

قال (عماد) هذه العبارة فى نبرات تفيض فخراً ، وهو يميل بعصا القيادة فى طائرته المقاتلة إلى أسفل، ومالت الطائرة فى مهارة ، كنسر ضخم يشق عباب السماء، وهى تتوجه إلى قاعدتها ، وعبر أجهزة الاتصال المثبتة على أذنى (عماد) ، جاءه الجواب :

ـ من القاعدة إلى نسر (سبعة) .. يمكنك الهبوط .. تصحبك السلامة .

لم يملك ضباط المراقبة فى القاعدة ، إلا أن يتابعوا هبوط طائرة (عماد) فى إعجاب ، واعترف كل منهم فى أعماقه أن هذا الرائد الشاب ، من أمهر طيارى القوات الجوية المصرية ، وأكثرهم شجاعة وجسارة .

ازداد الإعجاب فى أعماقهم ، حينما توقفت عجلات الطائرة فوق مهبطها ، وأزاح (عماد) غطاء كابينة القيادة،

ثم قفز إلى جناح الطائرة، ومنه إلى أرض المطار فى رشاقة أنيقة ..

كان جسده مثالاً للوسامة والقوة والفتوّة ، فهو طويل القامة دون إفراط ، عريض المنكبين ، واضح القوة ، والحيوية والنشاط ، أما وجهه فهو مستطيل أبيض البشرة، يكلله شعر فاحم ناعم قصير ، وتزينه عينان زرقاوان فى لون البحر ، وهو حليق الوجه ، تتبـدى فى نظراته علامات الفخر، وهو يسير منتصب القامة،واسع الخطا..

كان (عماد) يشعر بالفخر ؛ لأنه واحد من نسور مصر ..

منذ التحاقه بكلية الطيران وهو يشعر بهذا الفخر ..

بل منذ طفولته وهو يشعر وكأنه لم يخلق ليسير على قدميه ، بل ليشارك النسور تحليقها وقوتها ..

كان مجموعه فى الثانوية العامة يؤهله للالتحاق بأية كلية يشاء ، وعبثاً حاولت والدته إقناعه بدخول كلية الطب ، ولكنه لم يستطع إلا أن يلبىَ ذلك النداء القوى فى أعماقه ..

نداء السماء ..

جسده الرياضى الممشوق ، ورغبته الشديدة ، عاوناه على اجتياز اختبارات القبول العسيرة فى الكلية الجوية ..

ما زال يذكر المرة الأولى ، التى جلس فيها داخل كابينة قيادة طائرة التدريب ..

يومها امتلأ جسده بالنشوة ، وتدفقت فى عروقه دماء الحماس ، ولكنه لم يشعر بالغربة ، أمام كل تلك الأجهزة المعقدة ..

تعامل معها ، منذ الوهلة الأولى ، فى سلاسة أثارت إعجاب مدربه ، وفاق أقرانه كلهم فى الطيران ..

كان يحلق بطائرته ، وكأنما تعلم ذلك منذ نعومة أظفاره ..

وكانت الطائرة تستجيب له ، وكأنما نشأت بينهما ألفة ، أو رابطة قوية لا تنفصم ..

فى كل مناورة اشترك فيها أثار انبهار الجميع ..

كان ينطلق بطائرته فى مهارة ، وينزلق بها فى أشق الظروف ، وأحلك المواقف ، كأنما كان يسير على قدميه فوق طريق ممهد ..

فى كل مناورة كان يحسد القدامى ، الذين سنحت لهم الظروف للاشتراك فى قتال حقيقى ..

كان يحسد أبطال أكتوبر ، الذين وجهوا الضربة الأولى للعدوّ ، والذين كان لهم الفضل الأول فى النصر ..

غرفته فى منزل والديه كانت تمتلئ بصور هؤلاء الأبطال ممهورة بتوقيعاتهم ، وبالعديد من صور الطائرات المقاتلة الحديثة ..

طائرته المقاتلة كانت معشوقته الأولى ، فهو دائم العناية بها ، وكثيراً ما شاهده رفاقه وهو يربّت عليها فى حنان ، أو يهمس لها بكلمات لم يفهمها أحد ، وكأنها كائن حى يفهمه ، ويستجيب له ..

ولقد زين مقدمة طائرته برسم أنيق لنسر مفرود الجناحين ، ومن العجيب أن البعض كان يرى شبهاً عجيباً بين ملامحه ، وملامح ذلك النسر ، حتى أنهم أطلقوا على (عماد) لقب (النسر) ..

كان هذا هو اللقب الذى حادثه به رفيقه (فتحى) ،

حينما استقبله فى (ميس) الضباط (*) ، قائلاً فى مرح :

— كيف حالك أيها النسر ؟.. لقد كنت رائعاً فى مناورة اليوم .

ابتسم (عماد) فى سعادة لهذا الإطراء ، وقال :

— إنها مجرَّد مناورة يا صديقى .. كم أتوق لقتال حقيقى .

ضحك (فتحى) فى مرح ، وقال :

— فلنحمد الله أن أمنيتك لم تتحقق أيها النسر ، فأنا أفضِّل السلام .

ابتسم (عماد) ابتسامة باهتة ، على حين استطرد (فتحى) :

— هل تشاركنى طعام الغداء ؟

هزَّ (عماد) رأسه نفياً ، وقال فى هدوء :

— كلاَّ .. سأكتفى بكوب من الشاى الساخن .

قال عبارته وهو يلتقط منديله من جيب سترته العلوى ، وحينما أخرجه سقطت من جيبه صورة فوتوجرافية ملونة ،

(*) ميس الضباط : هو المكان الذى يتناول فيه ضباط الجيش وجباتهم الغذائية .

انزلقت إلى ما فوق المائدة ، واستقرت أمام (فتحى) ، الذى شهق فى إعجاب وهو يهتف :

– يا إلهى !! هل توغلت فى السماء ، إلى حيث تقطن الملائكة ، واختطفت هذه الصورة .

أسرع (عماد) يختطف الصورة من أمام صديقه ، وهو يقول فى فخر :

– إنها خطيبتى (فريال) .

رفع (فتحى) حاجبيه ، وهتف :

– خطيبتك ؟!.. يا لك من محظوظ !! إنها أجمل فتاة وقعت عليها عيناى .

تأمل (عماد) صورة (فريال) وهو يبتسم فى سعادة ، وغمغم فى أعماقه : كم هو صادق صديقه هذا ..

كانت (فريال) من أجمل الفتيات اللاتى يمكن أن تراهن فى عمرك بأكمله ..

إنها مستديرة الوجه ، ذات بشرة ناعمة بيضاء ، تشوبها حمرة خفيفة ، تشى بحيويتها ونضارتها ..

شعرها بنى مائل إلى الحمرة ، ينسدل ناعماً كالحرير على كتفيها ..

عيناها ذهبيتا اللون ، واسعتان ، تظللهما رموش بنية كثيفة ، ويعلوهما حاجبان رفيعان كإطار من الذهب ..

شفتاها فاكهة ناضجة ، تتدفق فيهما دماء حمراء قانية ، فتمتلئان فى اعتدال ..

عنقها ممتد جميل فى تناسق ، قلَّ أن تلمحه العين وسط المئات من الفتيات ..

كانت حقًّا بارعة الحسن ..

أعاد (عماد) صورة (فريال) إلى جيبه ، وهو يعود بذاكرته إلى لقائهما الأول ..

كان ذلك منذ ستة أشهر ، فى حفل زواج بنادى الضباط ..

يومها كان (عماد) يرتدى حُلتّه الرسمية ، التى يزين جيبها ذلك النسر المميز لرجال القوات الجوية ، وكان شديد الوسامة ، بما صنعه ذلك التوافق الأنيق بين لون حُلته الزرقاء ، وعينيه ..

يومها التقت نظراته بنظرات (فريال) ، وتألق فى عينى كل منهما الانبهار بالآخر ..

بهره جمالها الفتان النادر .. وبهرها زيه الرسمى الذى يبرز وسامته ..

كان من السهل عليهما – يومئذ – أن يتحدثا ، ففعلا ..

لم يمض شهر واحد على هذا اللقاء ، حتى كانت دبلته تزين أصابعها ، وتمت خطبتهما فى يسر ..

خمسة شهور منذ خطبتهما ، و (فريال) تتأمله فى انبهار ، وهو يرتدى زيه الرسمى ..

كانت تصر دائماً على أن يزورها ، ويتنزّه معها وهو يرتدى حلته الرسمية ، والنسر الذهبي يلمع على كتفيه ، وفوق صدره ..

وكان هو يشعر بالفخر لذلك ..

كان يشعر بالفخر لأنه نسر .. ولأنها أحبته ..

انتزعه (فتحى) من ذكرياته ، وهو يسأله :

– هل ستترك كوب الشاى يبرد ؟

تنبه (عماد) إلى كوب الشاى الموضوع أمامه ، فارتشفه فى سرعة ، ونهض قائلاً :

– معذرة يا صديق .. سأنصرف الآن ؛ لأننى مدعو للغداء فى منزل خطيبتى .

تأمله (فتحى) فى إعجاب ، وقال مبتسماً :

– لن أعوقك عن ذلك يا صديق .

ثم أردف فى مرح :

– إلى اللقاء أيها النسر .

* * *



٢ ـ الحادث ..

طرق (عماد) باب منزل (فريال) ثلاث طرقات رصينة هادئة كعادته ، ثم وقف منتصباً ينتظر أن تفتح هى الباب ..

ابتسم فى سعادة عندما فتح الباب ، وهو يتوقع رؤية خطيبته ، ولكنه فوجئ بفتاة أخرى رقيقة الجسد ، سوداء الشعر ، تهللت أساريرها حينما رأته ، ثم أسبلت جفنيها فى حياء ، وهى تقول :

ـ مرحباً يا كابتن (عماد) ، أنت دقيق فى مواعيدك كالعادة .

ابتسم (عماد) وهو يتأمل وجهها النحيل ، الذى تخضّب بحمرة الخجل كعادتها كلما رأته ، وتأمل ابتسامتها الرقيقة ، وشفتيها الرقيقتين ، وغمغم :

ـ كل النسور يحافظون على مواعيدهم يا (نادية) .

كان يعرف (نادية) منذ خطب (فريال) ، فهى صديقتها منذ الطفولة ، ولكنه لم يكن يتوقع رؤيتها اليوم ، فسألها وهو يعبر إلى داخل المنزل :

ـ أين (فريال) ؟

أجابته (نادية) فى رقة :

ـ إنها تنتظرك فى الداخل ، ولكننى كنت الأقرب إلى الباب .

كانت عبارتها تحمل بعض الاعتذار ، فابتسم وهو يقول :

ـ حسناً يا (نادية) .. إننى أسعد برؤيتك أيضاً .

خيل إليه أن عينيها قد تألقتا بسعادة غامرة ، لم تلبث أن توارت خلف خجلها ، الذى جعل الدماء تتصاعد إلى وجهها ، وهى تسرع إلى الداخل فى ارتباك ، وتقول فى صوت منفعل :

ـ لقد حضر الكابتن (عماد) يا (فريال) .

نسى (عماد) كل شىء عن (نادية) ، عندما برزت (فريال) فى ثوب أزرق ، موشى بخيوط ذهبية ، أضفت مزيداً من التألق على عينيها ، اللتين امتلأتا بالإعجاب ، وهى تتأمل وسامته فى زيه العسكرى ، وتقول :

ـ مرحباً يا (عماد) .. لقد أوحشتنى كثيراً .

احتضن كفها بين راحتيه ، وغمغم فى حنان :

ـ وأنت أيضاً يا (فريال) .

قالت (نادية) وهى تلتقط حقيبتها الصغيرة :

ـ أعتقد أنه قد حان الوقت لانصرافى .

هتفت (فريال) فى حماس :

ـ هذا مستحيل .. ستتناولين معنا طعام الغداء .

ثم التفتت إلى (عماد) تسأله :

ـ أليس كذلك يا (عماد) ؟

استدار (عماد) إلى (نادية) ، وقال فى ابتسامة زادت ملامحه وسامة :

ـ بلا شك .

أدهشته تلك النظرة المتألقة فى عينى (نادية) ، وتساءل عن سرّ كل ذلك الخجل الذى يعتريها كلما التقت نظراتهما ، ولكن عقله سرعان ما أهمل هذا التساؤل للمرة الثانية ، حينما أسرعت أم (فريال) لتحيته ، وجاء والدها يشد على يده فى حرارة ، وتسامر الجميع بعض الوقت ، حتى حان موعد الغداء ..

اشترك الجميع فى حوار مرح فى أثناء تناول الغداء ، باستثناء (نادية) ، التى ظلت صامتة ، تتأمل (عماد) و (فريال) ، وتبتسم حيناً ، ثم يتخضّب وجهها بحمرة الخجل حيناً آخر .. ومن العجيب أن أحداً لم ينتبه إلى صمتها ..

لم يكن أحدهم يدرى أنها غارقة حتى أذنيها فى حبّ (عماد) ..

كان حبها له يختلف .. فهى لم تعشق زيه الرسمى ، ولم تعشق وسامته الواضحة ، وإنما عشقت أعماقه ..

هى الوحيدة التى رأت فيه ما لم ينتبه إليه الآخرون ..

رأت ذلك الدفق من الحبّ والحنان فى أعماقه ..

كم حسدت صديقتها (فريال) على (عماد) ..

كم تمنت لو أنها حظيت به ..

كثيراً ما راودتها الأحلام بأنه يحبها ..

كان خطيب صديقتها فى الحقيقة ، وحبيبها هى فى عالمها الخاص ..

كلما التقت به أو نظرت إليه ، راودتها أحلامها ، فتتصاعد دماء الخجل إلى وجنتيها ..

صداقتها القديمة لـ (فريال) ، كانت تصنع بينهما حاجزاً يصعب إزالته ، فاكتفت برؤيته مع (فريال) ..
اكتفت بأحلامها ..
كانت تتأمله فى عشق وهو يتناول بعض الفاكهة ، عندما هتفت (فريال) فى حماس :
— ما رأيك أن نذهب إلى النادى (يا (عماد) ؟
ابتسم (عماد) ، وقال فى هدوء :
— لا بأس .. سأذهب إلى منزلى لأبدل ثيابى ، ثم..
قاطعته (فريال) فى عصبية :
— كلاَّ .. ستذهب معى هكذا .
نظر إليها (عماد) فى دهشة ، وقال :
— إن ذهابى إلى المنزل ، وإبدال ثيابى لن يستغرق نصف ساعة على الأكثر.
عقدت (فريال) حاجبيها ، وقالت فى عناد :
— كلاَّ .. أريد أن يراك أصدقائى فى زيك هذا .
ابتسم (عماد) فى فخر ، وقال :
— حسناً يا (فريال) .. سأذهب معك هكذا .

نهضت (نادية) ، وهى تقول فى ارتباك :
— سأنصرف أنا و ....
قاطعتها (فريال) :
— انتظرى يا (نادية) .. سنوصلك إلى منزلك فى طريقنا ..
شعرت (نادية) بغيرة شديدة ، وهى تجلس فى المقعد الخلفى لسيارة (عماد) الصغيرة ..
لقد تناسى (عماد) و (فريال) وجودها تماماً ، وهما يتبادلان حديثاً عاطفيًّا فى المقعدين الأماميين ..
شعرت بالحنق وهما يهملان وجودها تماماً ، ويتناجيان كما لو كانا بمفردهما ..
كانت (فريال) تتحسس النسر الذهبى فوق كتف (عماد) ، وتقول فى همس :
— كم يبهرنى مرآك فى هذا الزِّىّ يا (عماد) !!
أدار (عماد) وجهه إليها ، وقال فى عاطفة مشبوبة :
— أنت تبهريننى فى كل الأحوال يا (فريال) ..
ابتسمت (فريال) فى غرور ، وقالت بدلال :

– لا تبالغ .

هتف فى حماس :

– أبالغ ؟!.. إننى حتى لم أذكر كل الحقيقة .

ثم أردف فى نشوة :

– لقد سقطت صورتك من جيبى هذا الصباح ، ورآها صديقى (فتحى) .. هل تدرين ماذا قال عنها ؟

سألته (فريال) فى لهفة ودلال :

– ماذا قال ؟

تأملها (عماد) بطرف عينه ، وهو يقول :

– قال : إننى أحمل صورة واحدة من حوريات الجنة .

أزاحت (فريال) خصلة نافرة من شعرها الناعم ، وهى تقول فى دلال :

– أنت تقول هذا لتفرحنى .

التفت إليها (عماد) ، وهو يقول فى حماس :

– أقسم لك أن هذا ما حدث بالضبط .

جاءت التفاتته إليها فى وقت غير مناسب على الإطلاق ..

جاءت وهو يعبر منحنى شديد الخطورة ، وسط زحام رهيب من السيارات ..

لم ينتبه هو إلى الأمر ، فقد كان يلتهم جمال (فريال) بعينيه ..

ولم تنتبه (فريال) ، فقد كانت سكرى بكلمات الحبّ والإطراء ، التى يلقيها على مسامعها ..

(نادية) هى التى انتبهت إلى السيارة الضخمة ، التى يندفع نحوها (عماد) بسيارته الصغيرة ، فصرخت فى ذعر :

– انتبه يا (عماد) .

استدار (عماد) إلى الطريق فى سرعة ، وتيقظت حواسه كلها ، وانتقلت قدمه إلى (فرامل) سيارته،ولكن ذلك لم يمنع الاصطدام ..

صحيح أن الاصطدام جاء أقل مما كان متوقعاً ، نظراً لمهارة (عماد) ، ولكن توقف السيارة المفاجئ دفع به إلى عجلة القيادة ، وارتطم صدره بكفه الممسكة بها ، وكذلك اندفعت (فريال) إلى الأمام، وارتطم رأسها بزجاج

السيارة ارتطامة خفيفة ، أما (نادية) ، فقد اصطدمت رأسها بحاجز المقعد الأمامى ، وجرحت جبهتها ، وسالت منها الدماء ..

اندفع سائق السيارة الضخمة ساخطاً نحو (عماد) ، الذى ابتدره قائلاً :

– لا داعى للصياح .. أنا المخطئ ، وسأتكفل بالإصلاحات اللازمة .

أزال أسلوبه المهذب غضب سائق السيارة ، الذى غمغم :

– لا عليك .. إنها إصابات بسيطة .

انتحى (عماد) جانباً بسيارته ، وهتفت (نادية) فى قلق :

– هل أصابك مكروه يا (عماد) ؟

غمغم دون أن يلتفت إليها :

– لا أعتقد ذلك .

على حين صرخت (فريال) فى غضب :

– ألا تنتبه وأنت تقود السيارة ؟.. لقد أفسدت (مكياجى) ، وتصفيفة شعرى .

غمغم (عماد) فى ضيق :

– يمكننا أن نعود إلى المنزل لإصلاح (مكياجك) يا (فريال) .. لن يستغرق ذلك طويلا .

صرخت فى غضب :

– هذا ما تظنه أنت ، إننى لن أذهب إلى النادى اليوم .

أساءه أن تحدثه بهذا الأسلوب ، فأشاح بوجهه عنها ، والتفت إلى (نادية) ، وقال :

– معذرة يا (نادية) ، ستتأخرين قليلاً عن العودة إلى منزلك .

ابتسمت (نادية) ، وهى تقول :

– لا بأس يا (عماد) .. لا بأس ..

هتف فى جزع ، وهو يلمح خيط الدم ، المنسال من جرح جبهتها :

– يا إلهى !! أنت تنزفين .

أسعدتها لهفته عليها ، فغمغمت فى فرح :

– لا بأس .. المهم أنك بخير ..

أسرع يدير محرّك سيارته ، وهو يقول :

— لابد أن نسرع إلى أقرب مستشفى لتضميد جراحك .

لم يكد يمسك عجلة القيادة ، حتى شعر بآلام مبرّحة فى معصمه ، وسألته (نادية) فى قلق :

— هل أصابك مكروه ؟

غمغم فى قلق لم يستطع إخفاءه :

— لا أعتقد .. إنها مجرد كدمة بسيطة ..

ثم أردف فى توتر :

— أعتقد أنها كذلك :

* * *



٣ ـ السماء لا ترحم ..

رفع طبيب القاعدة الجوية عينيه ، يتأمل الشاب الوسيم ، الذى يقف أمامه ممشوق القوام ، فى زيه الرسمى الأزرق ، وأشار إلى المقعد المقابل لمكتبه ، وهو يقول :

— اجلس أيها الرائد (عماد) .

جلس (عماد) بطريقة آلية ، وانبعثت من عينيه نظرة ملؤها اللهفة والقلق ، وهو يسأل الطبيب :

— ماذا وجدتم يا سيدى ؟

تأمله الطبيب مرة أخرى ، على نحو خيل لـ (عماد) أنه يحمل بعض الإشفاق ، ثم دفن عينيه فى الأوراق ، والتقارير المتراصة أمامه ، وكأنه يفر من عينى (عماد) ، وقال فى لهجة حاول أن يضفى عليها الجدية والرصانة :

— الفحوص الطبية التى أجريناها ، تؤكد أن أعصاب الكفّ قد أصيبت ببعض الأضرار يا (عماد) .

ازدرد (عماد) لعابه فى صعوبة ، وغمغم فى قلق :

— وماذا بعد ؟

رفع الطبيب عينيه إلى (عماد) ، ثم عاد يفرّ بهما مرة ثانية إلى الأوراق ، وهو يغمغم :

- ستحتاج إلى فترة طويلة من العلاج الطبيعى ، مع بعض الأدوية و ....

قاطعة (عماد) على نحو لا يتفق مع فارق الرتب بينهما ، قائلاً فى لهفة :

- وماذا عن العمل ؟

انتقل قلقه إلى الطبيب ، الذى قال فى صوت خافت :

- أعتقد أنك ستواصل عملك فى القاعدة ولكن ....

بتر الطبيب عبارته ، على نحو فجّر كل ينابيع القلق فى نفس (عماد) ، الذى شحب وجهه وهو يسأله فى صوت متحشرج :

- ولكن ماذا ؟

ساد الصمت بينهما فترة ، وكلاهما يحدّق فى عينى الآخر ، ثم خفض الطبيب رأسه ، وقال فى أسف :

- لن يمكنك الطيران مرة أخرى يا ولدى ..

خيل لـ (عماد) أن الدماء قد توقفت كلها فى عروقه ..

خيل إليه أن قلبه قد أنصت لحظة لهذا الخبر ، الذى هوى عليه كالصاعقة ، ثم اندفع ينبض فى قوة كادت تمزّقه إرباً ..

حدّق طويلاً فى وجه الطبيب ،وكأنه لم يفهم عبارته ..

غمغم فى شحوب ، جعل صوته خافتاً إلى حد كبير :

- مطلقاً ؟!..

ترقرقت دمعة إشفاق فى عينى الطبيب ، وهو يقول :

- مطلقاً يا ولدى .. لم تعد يدك بقادرة على الاستجابة السريعة ، ولن يمكنك المناورة بطائرتك بعد الآن ..

هال الطبيب ذلك الشحوب المذهل الذى أصاب (عماد) ..

ذلك الشحوب الذى أحال وجهه إلى صفحة بيضاء ناصعة ..

لم يصدّق (عماد) ما تسمعه أذناه ..

لم يصدّق أنه لن يمتطى طائرته مرة ثانية .

كان الطيران هو حياته كلها ..

حياته ، وآماله ، وأحلامه ، ومستقبله ..

لم يكن باستطاعته أن يصدّق أن أحلامه كلها ستتهاوى ، من أجل حادث تافه ، كهذا الذى تعرّض له ..

هتف فى اعتراض واه :

– ربما بعد العلاج الطبيعى و ....

قاطعه الطبيب فى إشفاق :

– كلاً يا ولدى .. السماء لا ترحم أحداً ، والطير الضعيف تلتهمه الطيور القوية ..

– أنا نسر يا سيدى.

– الجميع نسور فى السماء أيها الرائد ، وإذا ما فقد واحد منها جناحيه ، انقضت عليه النسور الأخرى ، تلتهمه بلا شفقة أو رحمة .

– ولكنه يبقى أبداً ملك الطيور .

– ولكنه فى هذه الحالة يكتفى باللقب على شاهد قبره يا ولدى .

– إننى أفضل أن أكون نسراً فى قبرى ، من أن أصبح عصفوراً وديعاً يا سيدى .

منع الطبيب دموعه فى صعوبة، وهو يقول فى حزن وإشفاق :

– لا فائدة يا ولدى .. إنها القواعد ، ولا أحد يمكنه مخالفتها .

مزّقت هذه العبارة البقية الباقية من الأمل فى نفس (عماد) ..

مزّقت كيانه كله بلا رحمة ..

نهض من مقعده متماسكاً ، وواجه الطبيب بوقفته العسكرية الثابتة ، وقال :

– لم يعد هناك أمل إذن !!.

تمزّق قلب الطبيب ، وهو يشيح بوجهه قائلاً :

– للأسف يا ولدى !!

أدّى (عماد) التحية العسكرية فى شحوب، ثم استدار يجر قدميه جرًّا إلى خارج حجرة الطبيب ، ولم يكد يغلق بابها خلفه ، حتى أطلق الطبيب العنان لدموعه ، التى انهمرت على وجهه ، وهو يغمغم فى حسرة :

– لقد فقدت السماء واحداً من أقوى نسورها .

بكى الطبيب ، ولكن (عماد) لم يبك ..

كان يسير على قدميه بائساً ، يائساً .. ولكنه لم يبك ..

كانت الدنيا قد فقدت – بالنسبة إليه – كل رونقها وجمالها .. ولكنه لم يبك ..

كانت السماء قد أسقطت جناحيه ، ولفظته ، ولكنه ما زال يحمل فى جنباته قلب نسر ..

والنسور لا تبكى ..

وقف لحظة أمام ممرات الإقلاع والهبوط فى القاعدة الجوِّية ، والحزن يعتصر قلبه اعتصاراً ..

كانت الطائرات كلها رابضة ، ومحركاتها صامتة ، وكأنها تشاركه آلامه ..

عبر الممرات فى خطوات ثابتة ، لا تشى بعذاب صاحبها ، حتى وصل إلى طائرته ..

رابطة عجيبة تلك التى تربطه بهذه الآلة ..

رابطة صنعتها السماء ، ومزَّقتها الأرض ..

وقف يتأمل طائرته فى حزن أنساه كل ما حوله ..

خيل إليه أنها تبكى لفراقه ، كما يبكى لفراقها ..

تراءى له ذلك النسر المرسوم على مقدمتها ، وكأنه قد أحنى رأسه ألماً ..

مدَّ يده فى ألم يربِّت على جسم الطائرة ، وكأنه يواسيها ، ثم تحسس النسر المرسوم ، وغمغم فى صوت ، خيل إليه أنه لم يعد ينتمى إليه :

– وداعاً يا رفاق السماء .

وداعاً .. وداعاً .. وداعاً ..

ظلت الكلمة تتردد فى أعماقه كخنجر مسموم ، وهو يقود سيارته الصغيرة فى طريق العودة إلى منزله ..

ظلت تتردد فى أعماقه ، وهو يدخل إلى شقته ، ويتجه مباشرة إلى حجرته ، دون أن يلقى التحية على والديه ، كما اعتاد ..

أسرع والداه إليه فى جزع ، وسأله والده :

– ماذا حدث يا (عماد) ؟.. إنك تبدو شاحباً ومريضاً .

التفت إلى والديه فى حزن وألم ..

كاد يبكى فى هذه اللحظة ، ويرتمى بين ذراعى والدته ..

ولكنه تذكر أنه نسر ..

والنسور لا تذرف الدموع ..

ألقى العبء عن كاهله دفعة واحدة ، وقص على والديه ما حدث فى اقتضاب ، ساد بعده صمت عميق فى الحجرة ، إلى أن قطعه والده قائلاً :

– مهما كان ما حدث ، فالحياة لم تتوقف يا ولدى .

غمغم (عماد) :

– أعلم ذلك يا أبتاه .

سالت دموع الأم ، وهى تقول :

– ألم أنصحك بدخول كلية الطب ؟.. لو أنك فعلت ..

قاطعها الوالد فى صرامة :

– لم يكن القدر ليتغير ، ربما كان قد أصبح جرّاحاً ماهراً ، وفى هذه الحالة أيضاً كانت إصابة يده ستعوقه كثيراً .

ازداد انهمار الدموع من عينى الأم ، وحاولت أن تخفف على ولدها ، فقالت فى حنان :

– من يدرى أين الخير يا ولدى ؟

شعر برغبة قوية فى البكاء ، فقال فى صوت مختنق :

– أريد أن أجلس وحدى .

تبادل الوالدان نظرات مشفقة حزينة ، ثم ربّت الأب على كتف ابنه ، وقال :

– افعل ما بدا لك يا ولدى .

غادرا حجرته بقلوب مثقلة بالحزن ، وأغلقا بابها خلفهما ، وتركاه وحيداً ..

لم يكد باب حجرته يغلق ، حتى ترك دموعه تنهمر فى صمت على وجنتيه ..

كانت دموع المرارة والقهر والألم ..

دموع العـذاب ..

أسرع يجفف دموعه فى خجل ، ووقف يتأمل نفسه فى مرآة الحجرة ..

لأول مرة فى حياته شعر بالضيق ، وهو يرتدى زىّ القوات الجوّية الأزرق ..

أحسّ لأول مرة فى حياته ، أنه لم يعد يرغب فى ارتدائه ..

أسرع ينزع زيه العسكرى ، ويرتدى منامته ، ثم التقط مقعداً ، وجلس فى شرفة حجرته يتأمل السماء ..

تلك السماء القاسية ، التى لفظته عند أول خطأ ..

مرأى السماء أعاد إليه أحزانه كلها ..

بدت له السماء فى هذه اللحظة بعيدة ، عسيرة المنال ..

عاد بذاكرته إلى تلك الأيام ، التى كان يشق فيها عباب هذه السماء ، ويجوبها بطائرته فى فخر وإعزاز ..

انتقلت أفكاره فجأة إلى (فريال) ..

شعر بحاجته الشديدة إليها فى هذه اللحظة ..

نهض فجأة ، وارتدى حُلَّة بنية أنيقة ، وصفف شعره فى عنايه ، وقد قرَّر أن يذهب إليها ..

تحرَّك نحو باب حجرته فى سرعة ، ثم لم يلبث أن توقف ، وعاد إلى شرفته ، ورفع رأسه إلى السماء لحظة ، ثم غمغم فى ألم :

— حقًّا .. إن السماء لا ترحم .

* * *

٤ — الألم ..

شعر (عماد) بالضيق يملأ نفسه ، عندما دخل إلى منزل (فريال) ، ووجدها تجلس مع صديقتها (نادية) ..

كان يشعر بحرج مما سيخبر به (فريال) ، ولم يكن يحبّ أن يواجه (نادية) أيضاً ..

كان قد قرَّر أن يقص عليها كل ما حدث ..

قفزت (فريال) من مقعدها ترحِّب به ، وهتفت فى لهجة يشوبها بعض الاستنكار :

— لماذا لم تأت فى زيك الرَّسمى ؟

ضايقته عبارتها ، فغمغم :

— إننى أملُّ ارتداءها طيلة الوقت .

أشاح بوجهه عنها يصافح (نادية) فى برود ، وأحنقه هذه المرَّة ذلك الاحمرار ، الذى زحف إلى وجهها وهى تتمتم فى صوت مرتجف :

— كيف حال معصمك ؟

أجابها فى برود :

— لا بأس .

ثم أهملها فجأة ، مما أثار فى نفسها الحزن ، وهو يلتفت إلى (فريال) قائلاً :

— أريد أن أتحدَّث إليك وحدنا يا (فريال) .

قفزت (نادية) من مقعدها فى حرج ، وقالت فى ارتباك :

— كنت سأنصرف تواً .

قالت (فريال) فى حنق :

— كلاً يا (نادية) .. لقد اتفقنا على الذهاب إلى النادى ، ويمكنك انتظارنا فى حجرتى ، حتى أعلم ماذا يريد (عماد) .

غمغمت (نادية) ، وهى تغادر حجرة الانتظار فى ارتباك :

— حسناً يا (فريال) .. حسناً .

لم تكد (نادية) تغلق باب حجرة الانتظار خلفها ، حتى هتفت (فريال) فى غضب :

— ماذا أصابك ؟.. لقد أحرجت صديقتى .

تجاهل (عماد) غضبها ، وهو يقول فى حدَّة :

— لقد أصبحت خارج السرب يا (فريال) .

حدَّقت فى وجهه بدهشة ، وسألته :

— وماذا يعنى هذا ؟

أجابها فى حزن واضح :

— يعنى أننى لن أقود طائرة مرَّة أخرى .

صرخت فى ذهول :

— يا إلهى !! هل تركت القوات الجوية ؟

هزَّ رأسه نفياً ، وقال فى أسف :

— كلاً ، ولكننى سأظل على الأرض ، ربما فى أبراج المراقبة ، أو أى من الوظائف الإدارية الأخرى .

هتفت فى جزع :

— وماذا سترتدى ؟

أدهشه سؤالها ، حتى أنه قال :

— سأرتدى نفس الزِّىّ الذى أرتديه دائماً ، كل ضباط القوات الجوِّية يرتدونه .

فوجئ بها تتنهد فى ارتياح ، ثم تطلق ضحكة عالية ، وتقول فى لامبالاة :

— لقد أرعبتنى .. كنت أظن الأمر أخطر من ذلك .

أحنقه استهتارها ، فهتف فى غضب :

– هل تعلمين ماذا يعنيه عدم طيرانى مرّة أخرى ؟

هزّت كتفيها فى لامبالاة ، وقالت :

– يعنى مزيداً من الأمان ولا شك ، فكم خشيت أن تسقط بك الطائرة .

حاول أن يشرح لها ما يعنيه ذلك له ، ولكنه فوجئ بها تندفع إلى خارج الحجرة ، وهى تطلق ضحكات طفولية عابثة ، ثم لم تلبث أن عادت وهى تجذب (نادية) التى بدا الحرج واضحاً فى وجهها ، وفوجئ بها تقول لـ (نادية) :

– هل رأيت ما يقلقه إلى هذا الحدّ ؟.. كل ما فى الأمر أنه لن يطير مرة أخرى .. هل رأيت كم يبالغ فى تقدير الأمور ؟

شحب وجه (نادية) وهى تلمح الألم والغضب فى ملامح (عماد) ، الذى قال فى حنق :

– عجباً .. ألا تفهمين ما يعنيه الحرمان من الطيران لنسر مثلى ؟

حدّقت (فريال) فى وجهه لحظة ، ثم أطلقت ضحكة طويلة ، وقالت :

– نسر مثلك ؟! إننى أراك بشراً عاديًّا يا حبيبى .. صحيح أنك أكثر البشر وسامة ، ولكنك لا تملك جناحين .

احتقن وجهه غضباً من أسلوبها المستهتر ..

لقد أتى ينشد السلوى إلى جوارها ، فإذا بها تسخر من آلامه وأحزانه ..

أورثه استهتارها مزيداً من الألم ، فاضت به أعماقه ، فظهر فى ملامحه واضحاً ..

كان يصرخ فى وجهها غاضباً ، لولا أن قالت (نادية) فى صوت بالغ الحنو :

– أهذا نهائى ، أم أنه لفترة محدودة ؟

أجابها وهو يتهادى فوق أقرب المقاعد إليه ، وكأن ساقيه لم تعودا تتحملانه :

– بل إلى الأبد .

شعرت (نادية) فى هذه اللحظة برغبة قوية فى ضمه إلى صدرها ..

كانت – على عكس (فريال) – تشعر بأحزانه وآلامه..

كانت تعلم ما هو الطيران بالنسبة لرجل مثله ...

كانت تقدّر مدى ما يشعر به من عذاب ..

قالت فى محاولة لتخفيف يأسه :
ـ لاريب أن القوات الجوِّية لن تتخلى عن نسر مثلك.
لم يسمع عبارتها وهو ينهض ، قائلاً :
ـ سأنصرف الآن .. لدىَّ بعض الأعمال ..
هتفت (فريال) فى استنكار :
ـ ألن نذهب إلى النادى ؟
لوَّح بكفه فى حنق ، وقال فى صرامة :
ـ ليس اليوم .
لم يكد ينصرف ، حتى هتفت (نادية) فى غضب :
ـ لم يكن من اللائق أن تسخرى منه هكذا يا (فريال).
نظرت (فريال) إلى صديقتها فى دهشة ، وهتفت فى غضب :
ـ هل تريدين تعليمى الوسيلة المثلى لمعاملة خطيبى يا (نادية) ؟
احتقن وجه (نادية) ، وهى تقول :
ـ إننى أتحدَّث عن قواعد اللياقة يا (فريال) .
صرخت (فريال) فى غضب هادر :
ـ اللياقة ؟! .. هل نسيت من أنت ؟.. هل نسيت

أنك مجرد موظفة صغيرة فى الشركة التى يرأسها أبى ؟. هل نسيت أننى أنا صاحبة الفضل فى تعيينك هناك ؟
عقدت (نادية) حاجبيها ، وهى تقول فى غضب :
ـ كلاَّ يا (فريال) .. إننى لم أنس ، ولكن لاعلاقة لهذا بما أتحدث إليك به .
صاحت (فريال) فى وقاحة :
ـ لن أسمح لتافهة مثلك أن تعلمنى أصول اللياقة .
احتقن وجه (نادية) لحظة ، ثم قالت فى غضب :
ـ لقد تجاوزت حدودك يا (فريال) .. صحيح أن والدك يرأس الشركة التى أعمل بها ، ولكنه لا يملكها .. ثم إن والدى ـ رحمه الله ـ كان يفوقه منصباً منذ عشر سنوات ، ولو لم يوافه الأجل ، لكان هو رئيس الشركة اليوم .
تأملتها (فريال) بنظرات غاضبة ، ثم عقدت ساعديها أمام صدرها ، وقالت فى لهجة أقرب إلى السخرية :
ـ لماذا لا نكشف أوراقنا فى صراحة ؟
بدت الدهشة على وجه (نادية) ، وهى تسألها :
ـ أية أوراق ؟

قالت (فريال) فى شراسة :

– ينبغى أن تعترفى أن ثورتك من أجل (عماد) ، لم تكن بسبب قواعد اللياقة .

ثم أردفت فى حدَّة :

– اعترفى أنك تحبينه .

هبط هـذا التصريح كالقنبلة على رأس (نادية) ، فشحب وجهها ، وتراجعت فى ذعر ، وهى تلوِّح بكفها صائحة :

– كلاَّ يا (فريال) .. أنت مخطئة .

هاجمتها (فريال) بلا رحمة :

– أغبيَّة تظنيننى أم حمقاء ؟.. إننى ألحظ نظراتك الوالهة إليه كلما تقابلتما ، ولا يفوتنى ذلك الخجل الذى يعتريك عندما يحدِّثك .

ازداد شحوب (نادية) ، وتخاذلت ساقاها ، فهوت على أقرب مقعد إليها ، وهى تغمغم :

– يا إلهى !!

واصلت (فريال) ثورتها قائلة :

– إننى أعلم منذ البداية أنك غارقة فى حبه ، وأنك

تحسديننى على وسامته وأناقته ، ولكننى أتجاهل ذلك ؛ لأننى أعلم أنه لن يترك ملكة جمال مثلى من أجل صعلوكة مثلك .

جاءت هذه العبارة طعنة أخرى فى قلب (نادية) ..

شعرت فى هذه اللحظة ، وكأن (فريال) جرَّدتها من ثيابها فى طريق عام ..

شعرت أنها تكشف بلا رحمة مخاوفها وآلامها ..

كانت تعلم منذ البداية أن جمال (فريال) لا ينافس ..

كانت تعلم أنها تبدو شاحبة إلى جوارها ..

إنها تحسدها فعلاً على (عماد) .. ولكنها لم تحاول انتزاعه منها ..

لقد حاولت طوال الوقت أن تقتل حبه فى قلبها ، حتى لا تخون صداقتها مع (فريال) ، وهاهى ذى (فريال) تمزِّق تلك الصداقة فى قسوة لا مثيل لها ..

وجدت نفسها تهتف فجأة فى حنق :

– أنت لا تستحقينه .

قالت (فريال) فى سخرية :

– لقد اختارنى دونك .

هتفت (نادية) فى حنق :

ـ لقد أخطأ باختيار فتاة لا تبالى بأحزانه ومشاعره ..

احتقن وجه (فريال) غضباً ، وقالت فجأة فى حدة :

ـ اخرجى من هذا المنزل .

شحب وجه (نادية) ، وهى تغمغم :

ـ هل تطردينى يا (فريال) ؟

صرخت فريال فى غضب :

ـ نعم .. إننى أطردك من منزلى ومن حياتى كلها .. اخرجى قبل أن أطلب من الخادمة أن تلقى بك خارجاً .

نهضت (نادية) وهى تترنح من هـول الإهانة ، وحملت حقيبتها فى ضعف ، ولكن عنادها لم يلبث أن تفجر فى أعماقها ، وشعرت بالألم من أسلوب (فريال) وصلفها ، فاستدارت إليها قبل أن تغادر المنزل ، وقالت فى صرامة :

ـ نعم .. أنت لا تستحقينه .

وأغلقت الباب خلفها .. إلى الأبد .

* * *

٥ ـ الهروب ..

أسبوع كامل مرَّ منذ أبعد (عماد) عن الطيران ..

أسبوع كامل وهو يعمل فى برج المراقبة ..

خيل إليه أنه سينجح فى امتصاص الصدمة ، ولكنه لم يستطع ..

كانت رؤية الطـائرات وهى تقلع وتهبط تزيد من آلامه ..

كان يشعر وكأنه نسر بلا جناحين ..

نسر انتزعت الأقـدار جنـاحيه ، فأخـذ يسير على الأرض ، وهو يتطلع فى حسرة إلى السماء ..

كان هدير الطائرات كالسياط تهوى على أذنيه ..

لم يعد يستطيع الاحتمال ..

اتخذ قراره فى حزم ، وتوجه إلى حجرة قائد القاعدة ، وأدَّى التحية العسكرية أمامه ، وقال فى لهجة حاول أن يخفى ما بها من ألم :

ـ أريد التقدم باستقالتى يا سيدى .

حدَّق القائد فى وجهه بدهشة ، ثم أشـار إليه أن

يجلس ، وسأله فى لهجة أبوية ، بعيدة عن الرّسميات :

– لماذا تحاول الهروب من قدرك يا (عماد) ؟

– ربما أنا ذاهب إليه يا سيدى .

– لا أظن .. لاحياة للنسور بعيداً عن السماء .

– أنا نسر بلا جناحين يا سيدى .

– ولكنك ترعى نسوراً أخرى .

– لم أعد أحتمل .

– مصر فى حاجة إلى خبراتك .

– لن تفيد منى مصر ، وأنا على هذه الصورة .

– هل أنت مصرىٌّ ؟

– نعم يا سيدى .

تناول قائد القاعدة الورقة التى خط عليها (عماد) استقالته ، وذيّلها بتوقيعه ، وهو يقول فى صرامة :

– إذهب إذن .. لن نجبرك على البقاء .

استغرق الأمر أسبوعاً آخر ، حتى أنهى (عماد) إجراءات استقالته من القوّات الجويّة ..

أسبوع كامل ، لم يحاول خلاله الالتقاء بـ (فريال) مرّة واحدة ..

إنه حتى لم يتذكرها فى غمرة المشاعر التى عصفت به ..

لقد سعى جاهداً لإنهاء إجراءات استقالته ، ثم لم يكد يتسلمها فى يده حتى انتابه شعور جارف بالإحباط والضياع ..

رأى نفسه كنسر أصيب جناحاه ، فبترهما ، وحكم على نفسه بالبقاء على الأرض ما بقى له من عمر ..

كاد يبكى وهو ينزع حُلّته الرّسمية لآخر مرّة ، ولكنه قهر دموعه ..

أراد الاحتفاظ بقلب نسر ، وبعينى نسر لا تعرفان الدموع ..

أول ما فعله بعد استقالته ، هو أن قفز فى سيارته الصغيرة ، وانطلق إلى منزل (فريال) ..

لم يكن الشوق إلى (فريال) هو ما جذبه إليها فى هذه اللحظة ، وإنما رغبته فى الابتعاد عن منزله ..

استقبلته (فريال) فى مرح ، وقالت وهى تقوده إلى حجرة الانتظار :

– كيف حالك أيها النسر ؟

نكأت عباراتها جرحه ، فغمغم فى أسى :

ـ لم أعُد نسراً يا (فريال) .
توقفت فجأة ، وسألته فى قلق :
ـ ماذا تعنى ؟
أشاح بوجهه عنها ، وهو يقول :
ـ لقد استقلت من القوات الجوية .
صرخت (فريال) فى استنكار :
ـ استقلت ؟!
أومأ برأسه إيجاباً ، وقال فى صوت حزين :
ـ لم أعُد أحتمل العمل خارج السرب و ....
قاطعته صارخة :
ـ هل تعنى أنك لن ترتدى زيك العسكرى مرّة أخرى .
التفت إليها ، وهو يقول فى دهشة :
ـ طبعاً .
أدهشته تلك الخيبة التى ارتسمت على محياها ، فغمغم وهو يحاول الفرار من الموقف :
ـ ما أن نذهب إلى النادى رأيك و .... ؟
قاطعته فى سخط :

ـ لن أذهب إلى النادى .
زاد سخطها من توتره ، فقال فى لهجة أقرب إلى التوسُّل :
ـ دعينا نخرج للنزهة إذن .
بدت شديدة البرود والضيق ، وهى تقول :
ـ لا بأس .. على أن نعود مبكراً .
ظلت (فريال) على برودها ، وهو يقود سيارته الصغيرة بلا هدى ، وحينما حاول إخراجها من صمتها بدعابة ، بذل مجهوداً كبيراً لإلقائها ، أبدت تأففها وهى تقول :
ـ يا إلهى !! كيف تحتمل سيارتك الصغيرة هذه؟
عقد حاجبيه ، وهو يقول فى ضيق :
ـ لقد تنزهنا كثيراً فى سيارتى الصغيرة هذه يا (فريال) ، وهذه أول مرّة تبدين ضيقك منها .
لوحت بكفها ، وهى تقول فى حنق :
ـ لم أعد أحتملها .. لقد كنت أخجل منها دوماً ، عندما كنا نذهب بها إلى النادى ، ونضعها وسط رهط السيارات الفاخرة هناك .

أحنقه أسلوبها المتكبر هذا الصباح، فلاذ بالصمت، وأخذ يقود سيارته الصغيرة عبر طرقات لم تجتزها سيارته من قبل ..

كان يشعر فى هذه اللحظة بمزيد من الضياع ..

كان يبحث عن شخص واحد يمكنه أن يشعر بآلامه.

وفجأة وقعت عيناه على هذا الشخص، فهتف فى فرح :

- انظرى يا (فريال) .. إنها (نادية) .

انحرف بسيارته نحو (نادية)، قبل أن تقول (فريال) فى غضب :

- ما لنا بها ؟. دعنا نتنزه وحدنا .

لم يستمع إلى عبارتها الغاضبة ، وهو يتوقف أمام (نادية) ، صائحاً فى مرح :

- صباح الخير يا (نادية) .. انضمى إلينا فى نزهتنا .

انتفض قلب (نادية) فرحاً حينما لمحته ، وتوردت وجنتاها خجلاً وسعادة ..

كانت هذه هى المرة الأولى، التى يوليها فيها اهتماماً خاصًّا ، فهتفت دون أن تنتبه إلى وجود (فريال) :

- صباح الخير يا (عماد) .. كم تسعدنى رؤيتك .

انتبهت فجأة إلى وجود (فريال) ، فتحول خجلها إلى ارتباك ، وهى تقول فى تلعثم :

- ربما لن يمكننى مشاركتكم نزهتكم و ....

فوجئت به يغادر سيارته فجأة ، ويجذبها من معصمها إلى السيارة ، قائلاً فى مرح :

- لن أقبل اعتذارات .. أنا أصرُّ على أن ترافقينا .

كان هذا الموقف منه مفاجئاً للجميع ..

كانت مفاجأة لـ (نادية) ، أن تجد منه كل هـذا الاهتمام والإصرار على مرافقتها لهما ..

وكانت مفاجأة لـ (فريال) ، أن يتخذ (عماد) هذا الموقف - لأول مرة - من الفتاة التى طردتها من منزلها منذ أسبوعين فقط ..

ومن العجيب أنها كانت مفاجأة لـ (عماد) أيضاً ..

كان شىء ما فى أعماقه يدفعه للاهتمام الشديد بـ (نادية) فى هذا الوقت ..

شىء لم يدر كنهه ، أو معناه ..

ولكنه كان يشعر بضرورة وجودها إلى جواره فى هذه اللحظة ..

ربما كان عقله الباطن ، الذى أدرك أنه و (نادية) متشابهان ..

كان هو نسراً فقد قدرته على الطيران ، وكانت هى عصفورة فقدت كل رعايات الآخرين ، وصداقتهم ..

كان كلاهما طيراً بلا أجنحة .. مع الفارق ..

تلاشى الارتباك والحرج تماماً من قلب (نادية) ، مع أسلوب (عماد) المتهافت ..

تجاهلت الغضب الواضح فى عينى (فريال) ، التى لم تبادلها كلمة واحدة ، ولم تحاول حتى الرّد على تحيتها ..

اكتفت بأنها تجلس فى المقعد الخلفى لسيارة ، يقودها الرجل الذى أحبته ..

لم تحاول هذه المرة إخفاء كل هذا الحبّ ، الذى أطل من عينيها وهى تتأمله ..

لمح هو كل هذا الحبّ فى مرآة السيارة ، ولكنه لم يفهمه ، واكتفى بأن منحها ابتسامة تفيض بالسعادة ..

ابتسامة التأمت لها كل جراح قلبها ..

لم تدر سبب ابتسامته ، ولكنها تركت قلبها يخفق لها فى سعادة ..

(فريال) أيضاً لمحت هذه الابتسامة ، وأساءت فهمها ، وامتلأ قلبها بالحقد والكراهية ، فقالت لـ (عماد) فى برود :

ـ إلى أين يا بطل الأبطال ؟

لم تخف عليه رنة السخرية فى صوتها ، فقال :

ـ كما تشائين يا (فريال) .

تجاهلت قوله ، وأشارت إلى فيلاً أنيقة فى أحد أحياء (مصر الجديدة) ، وقالت فى لهجة شامتة :

ـ انظرا لجمال هذه الڤيلاً .. ألا تعتقدان أن واحدة فى جمالى ، تستحق الزواج من رجل يمتلك مثلها ؟

نظر (عماد) إلى الڤيلاً الأنيقة ، وقال فى حماس مفاجىء :

ـ يوماً ما سأمتلك هذه الڤيلاً .

انطلقت من بين شفتى (فريال) ضحكة ساخرة عالية ، أثارت دهشة (نادية) ، وسخط (عماد) ، ثم قالت فى سخرية :

– وكيف ستحصل عليها أيها النسر المهيض الجناح؟.. هل ستعطى دروساً خصوصية فى الطيران ؟

أوقف (عماد) سيارته فجأة ، على نحو دفع (فريال) و (نادية) إلى الأمام ، وصرخت (فريال) فى غضب :

– ماذا تفعل أيها الأحمق ؟

استدار إليها (عماد) ، وقال فى غضب :

– كفى يا (فريال) .. إننى لم أعد أحتمل أسلوبك الساخر السخيف فى التعامل معى .

قالت فى حدّة :

– إننى لم أطلب منك احتماله ، وليس فى نيتى تغييره.

صاح فى غضب :

– بل ستغيرينه أو ....

قاطعته فى سخرية :

– أو ماذا أيها النسر ؟

هتف فى غضب هادر :

– أو ينتهى ما بيننا تماماً .

وفى بساطة عجيبة ، انتزعت (فريال) دبلتـه من

إصبعها ، وقذفت بها إليه ، على نحو يخلو من الذوق ، وقالت فى تكبر :

– حسناً .. يمكنك اعتبار ما بيننا قد انتهى .

جلس يحدّق فيها بذهول ، على حين قفزت هى خارج السيارة ، وأشارت إلى واحدة من سيارات الأجرة التى لم تلبث أن انطلقت بها بعيداً .

* * *



٦ - الوعـد ..

تسمَّر (عماد) فى مقعده ذاهلاً ،وهو يراقب سيارة الأجرة ، التى تبتعد بـ (فريال) ..

كان هذا أقوى مما يمكنه احتماله ..

لقد فقد حلمه وخطيبته فى يوم واحد ..

ولكن التصرُّف الذى أقدمت عليه (فريال)، بكل هذا الصلف والغرور ، أضاء أمامه أشياء أخرى ، لم ينتبه إليها من قبل ..

تذكَّر كيف كانت تصرُّ دائماً على أن يرافقها إلى النادى فى زيه الرَّسمى ..

تذكَّر كيف كانت تثور كلما حاول إبدال زيه ..

عاد إلى ذاكرتهموقفها ،يوم أخبرها أنه لم يعد قادراً على الطيران ..

لقد سألته — يومئذ —فى جزع ،عما إذا كانسيواصل ارتداء زيه ..

تذكر كيف تنهدت فى ارتياح ، حينما جاءت إجابته بالإيجاب ..

اتسعت عيناه، وهو يكشف لأول مرة أن (فريال) لم تحبه يوماً ..

لقد أحبت زيه لا هو ..

أحبت ريش النسر ،لا قوته، وشخصيته ، وكبرياءه ..

أحبت مظهره لا جوهره ..

لم يمكنه فى البداية أن يستوعب وجود مثل هذه الشخصية التافهة ، ولكن ذاكرته لم تلبث أن أكدت له أنها كذلك ..

شعر بالغضب يعربد فى أعماقه ..

استولى عليه الشعور بالغضب ، حتى أنه نسى وجود (نادية) فى المقعد الخلفى ..

نسى وجودها ، حتى أنه دهش حينما غمغمت هى فى أسف :

— يؤسفنى أن هذا حدث فى وجودى .

التفت إليها فى دهشة ، وكأنه ينتبه إلى وجودها للمرة الأولى ، ثم قال فى صلابة :

— بل يسعدنى أنه حدث فى وجود شاهد ، يؤكد صلفها ، وغرورها .

ثم أشار إليها قائلاً :

– انتقلى إلى المقعد الأمامى يا (نادية) ، سأوصلك إلى حيث تريدين .

شعرت (نادية) بنشوة عجيبة ، وهى تنتقل إلى جواره ..

خيل إليها أنها قد احتلت مقعد (فريال) ، ومكانتها فى قلبه ، بهذا التصرُّف البسيط ..

وجدت نفسها تربِّت على كتفه فى حنان ، وتقول فى صوت مفعم بالحبّ :

– هل آلمك فراقها ؟

لم ينتبه إلى كل هذا الحبّ والحنان، وهو يقول فى حزم:

– إنها لم تحبنى يوماً يا (نادية) ، وفراقنا اليوم أفضل من فشل زواجنا فيما بعد .

سألته فى حنان :

– ولكن لماذا فعلت ذلك ؟

أجابها وهو يقود سيارته فى هدوء :

– لقد استقلت من القوّات الجوية ، ولن ارتدى بعد الآن ذلك الزّىّ الذى بهرها دائماً .

هتفت (نادية) فى إشفاق :

– استقلت ؟!

أجابها دون أن يلتفت إليها :

– نعم يا (نادية) .. استقلت .. ولكننى أعدك أن أجعل (فريال) تندم يوماً على خلع دبلتى من إصبعها .

نطق هذا الوعد فى انفعال وصرامة ، أورثاها حزناً شديداً ..

كان أسلوبه يؤكد أنه لم يُلْقِ حبّ (فريال) من قلبه بعد ..

تحطم فى لحظة ذلك الأمل ، الذى راود (نادية) فى احتلال مكانة (فريال) فى قلبه ..

لاذت بالصمت وهى تجتر آلامها ، حتى أنزلها أمام منزلها ، فقالت فى حنان ، وهى تصافحه بيد مرتجفة :

– أدعو الله أن يوفقك فيما ترغب يا (عماد) .

ربّت على كفها ، وهو يغمغم :

– شكراً يا (نادية) .

انطلق بسيارته دون أن يلمح تلك الدموع ، التى انسالت على وجنتيها ..

غضبه وسخطه على (فريال) صنعا أمام عينيه غشاوة ، حجبت عنهما حبّ (نادية) ، وحنانها ..

ردّد الوعد الذى قطعه على نفسه عشرات المرّات فى أعماقه ، وهو ينطلق بسيارته عائداً إلى منزله ..

ظل هذا الوعد يتردّد فى عقله وهو يصعد فى درجات السلم ، ويفتح باب المنزل ..

انطلقت من داخل المنزل صيحة فرح :

– (عماد) ؟. كم أوحشتنى أيها النسر .

تهللت أسارير (عماد) ، حينما رأى أمامه شقيقه الأكبر (ناجى) ، فاندفع إليه فى حبٍّ ، وتعانقا فى سعادة ، ثم هتف (عماد) :

– متى عدت أيها المهاجر ؟.. ألم يكن من المفروض أن تخبرنى بموعد عودتك ؟

ربّت (ناجى) على كتف شقيقه فى حنان ، وقال فى مرح :

– أردت أن أفاجئك أيها النسر .. كيف حال القوات الجوية معك ؟

أطرق (عماد) برأسه فى حزن ، وغمغم :

– لقد قُبلت استقالتى اليوم يا (ناجى) .

هتف (ناجى) فى دهشة :

– كيف ؟..

قص عليه (عماد) الأمر كله ، منذ إصابة معصمه ، وحتى فسخ خطبة (فريال) ، واستمع إليه (ناجى) ووالداه فى اهتمام ، ثم هتفت الأم فى غضب :

– كيف تجرؤ هذه السخيفة على ذلك ؟

على حين سأل الوالد ولده فى قلق :

– ولكن لماذا لم تخبرنا عن رغبتك فى الاستقالة يا (عماد) ؟.

غمغم (عماد) فى حزن :

– فضلت أن أخبر الجميع بعد انتهاء الأمر .

هتف (ناجى) فجأة :

– لعله القدر يا (عماد) .. فهذا يجعل رحلتى إلى القاهرة أكثر نجاحاً .

سأله (عماد) فى دهشة :

– ماذا تعنى بقولك هذا ؟

اعتدل (ناجى) ، وقال فى جدّية :

- أنت تعلم أننى هاجرت إلى كندا منذ عشر سنوات بحثاً عن الثراء ، ولقد ساعدنى الله (سبحانه وتعالى) كثيراً ، وتحقق لى ما كنت أسعى إليه ، وأنا الآن صاحب واحدة من كبريات الشركات السياحية هناك .

غمغم (عماد) :

- أعلم ذلك .

ابتسم (ناجى) ، وهو يقول :

- ما لا تعلمه ، هو أننى عدت إلى القاهرة هذه المرَّة خصيصاً ، فى محاولة لإنشاء فرع لشركتى السياحية هنا .

تهللت أسارير (عماد) ، وهو يهتف :

- حسناً تفعل يا أخى ، فوطنك أحق باستثماراتك .

أومأ (ناجى) برأسه موافقاً ، وقال :

- أكثر ما كان يشغلنى هو البحث عن شخص جدير بالثقة ، لإدارة فرع الشركة هنا ، وأعتقد أنه بعد استقالتك ، لم تعد هناك مشكلة فى هذا الأمر .

سأله (عماد) فى لهفة :

- ماذا تعنى ؟

ابتسم (ناجى) ، وهو يقول :

- إننى أعرض عليك - تبعاً لظروفك الحاضرة - رئاسة الشركة ، مقابل خمسين فى المائة من أرباحها ، وللعلم ، لا يوجد أى مجال للمجاملة فى هذا العرض ، فهو نفسه ما كنت سأتقدم به لمن أعثر عليه للوظيفة ذاتها ، ولكن نظراً لأنك شقيق الوحيد ، فستكون شريكاً بالنصف فى الشركة .. ما رأيك ؟

كانت أول مفاجأة مفرحة فى ذلك النهار ، فلم يتمالك (عماد) نفسه ، أن صاح فى سعادة :

- هل تسألنى رأيى؟.. إن هذا أكثر مما كنت أطمع فيه يا (ناجى) .

هتف (ناجى) فى حماس :

- بل هو أقل مما تستحقه حقًّا يا (عماد) .

تصافح الشقيقان فى حرارة ، وفى داخل (عماد) تردَّد الوعد مرة ثانية :

- ستنعمين يا (فريال) .. أقسم لك .

* * *

٧ - الانتقام ..

عادت (فريال) إلى منزلها ، وهى تمتلئ بالغضب والثورة ..

لم يكن غضبها بسبب انفصالها عن (عماد) ، فهى التى سعت إليه ..

ولم تكن ثورتها من أجل فراقه ، فهى التى فارقته ..

كانت ثورتها ضد (نادية) ، وغضبها من أجلها ..

لقد أحنقها أن يتوقف (عماد) خصيصاً ، ليدعو الفتاة التى طردتها هى ، إلى النزهة معهما ..

نسج عقلها المتكبر المريض قصة وهمية ، عن علاقة عاطفية تربط (عماد) و (نادية) من خلف ظهرها ، وضخم خيالها القصة ، وحجب عنها كونها صاحبة قرار الانفصال ، فباتت تظن (عماد) قد تخلّى عنها من أجل (نادية) ..

ازدادت كراهيتها لـ (نادية) ، وبدأت تصبُّ عليها جام غضبها ..

اندفعت إلى حجرة والدها ، فاقتحمتها فى ثورة ، وصرخت فى غضب طفولى :

- أبى .. لقد فصم (عماد) خطبتنا .

هتف والدها فى دهشة :

- يا إلهى !! لماذا ؟

وصاحت والدتها :

- من يظن نفسه ؟ إنك تستحقين من هو أفضل منه .

قالت (فريال) فى صوت أقرب إلى البكاء :

- لقد تركنى من أجل هذه الحقيرة (نادية) .

عقد الوالد حاجبيه ، وهو يسألها فى دهشة :

- (نادية) من ؟

صاحت (فريال) :

- (نادية عبد السلام) .. تلك الحقيرة التى نستضيفها فى منزلنا دائماً ، والتى سعيت أنا لتوظيفها فى شركتك يا أبتاه ، لقد أدارت رأسه ، واختطفته منى .

هتفت الوالدة فى غضب :

- يا للخبيثة الخائنة !!

وازداد انعقاد حاجبي الوالد ، وهو يغمغم فى غضب :

ـ تلك الماكرة .. كنت أظنها دائماً طيبة القلب .

صاحت (فريال) ، ودموعها تسيل على وجهها :

ـ إنها خائنة كريهة .. كم أكرهها !! كم أكرهها !!

ربّت الوالد على كتف ابنته ، وقال فى صرامة :

ـ اطمئنى يا (فريال) .. سأجعلها تدفع الثمن غالياً .

لم ينطق الوالد هذه الكلمات عبثاً .. بل كان يعنى كل حرف منها ..

كان يرغب حقّاً فى الانتقام من الفتاة ، التى ظن أنها أساءت إلى ابنته الوحيدة ..

ولم تكن رغبته فى الانتقام قد خفتت بعد ، عندما استدعى (نادية) إلى مكتبه فى الصباح التالى ..

ذهبت المسكينة إليه ، دون أن تدرى أنها هدف لانتقام أخرق ..

وقفت أمامه باسمة كعادتها ، وسألته :

ـ ماذا تريد يا عمّاه ؟

فوجئت به يقول فى صرامة :

ـ أهكذا تخاطبين رئيس مجلس إدارة الشركة ، التى تعملين فيها ؟

ارتبكت لقوله ، فقد اعتادت طيلة عمرها أن تخاطبه بهذا اللقب ، ولكنها أدركت فوراً ، أن (فريال) قد أساءت إليها بشكل أو بآخر ، فعادت تقول فى لهجة رسمية :

ـ ماذا تريد يا سيدى ؟

تشاغل عنها بترتيب بعض الأوراق فوق مكتبه ، ولم يدعها للجلوس كعادته ، إمعاناً فى إذلالها ، ثم قال دون أن يرفع رأسه إليها :

ـ لقد وقعت صباح اليوم أمراً بنقلك إلى فرع الشركة فى (أسوان) .

هتفت فى ذعر :

ـ (أسوان) ؟!.. ولكن لماذا ؟

رفع رأسه إليها ، وعيناه تتقدان غضباً ، وقال فى قسوة :

ـ حاجة العمل تقضى ذلك ، وليس من حقك الاعتراض على قرارات الشركة .

انتابها غضب شديد ، فقالت فى حدّة :

– ولكنك تعلم أن والدتى مريضة ، وليس لها سواى ، ولن يمكنها الانتقال معى إلى (أسوان) ، كما لا يمكننى تركها وحدها هنا .

قال فى قسوة :

– إما أن تنفّذى النقل ، أو تقدّمى استقالتك .

لم تدر لِمَ تذكرت (عماد) فى هذه اللحظة ..

ربما لأنها كانت تحتاج إليه ، ليواجه هذا الرجل القاسى بدلاً منها ..

أو ربما لأنها شعرت فى هذه اللحظة أنها مثله .. طير بلا أجنحة ..

شعرت أنها عصفور صغير ، لم يقوَ جناحاه على الطيران بعد ، ينقض عليه صقر قوى ، ويلقى به من عشه ..

قالت فى ضراعة :

– لقد كنت صديقاً لوالدى (رحمه الله) .. وأنت تعلم أنه لم يترك لنا سوى معاشه الضئيل ، وليس بإمكانى ....

قاطعها فى قسوة :

– النقل أو الاستقالة .

اجتاح الغضب نفسها ، فاعتدلت ، واختفت الضراعة من صوتها ، وهى تقول :

– إننى أرفض النقل ، ولن أتقدّم باستقالتى .

اتسعت عينا الرجل دهشة ، وصاح فى غضب :

– هل تتحدّينى أيتها الحقيرة ؟

وجدت نفسها تصرخ فى حنق :

– لن أسمح لك بإهانتى ، وسأتقدّم بشكوى ضد هذا القرار المتعسف .

غلى الدم فى عروقه ، فصرخ وهو يقفز من مقعده ثائراً :

– اذهبى إلى مكتبك ، وسيخصم من راتبك عشرة أيام .

قالت فى تحدٍّ :

– فليكن ، ولكننى لن أقدّم استقالتى .

قالت عبارتها ، وأسرعت إلى مكتبها ، ولكنها لم تكد تجلس عليه ، حتى تفجّرت من عينيها الدموع ..

كانت تعلم أنها لن تصمد طويلاً ، أمام قوة والد (فريال) وسطوته ..

كانت تخشى ما يمكن أن يصيب والدتها ، إذا ما استقالت من عملها ، وانقطع ذلك المورد ، الذى يضيع كله فى شراء الأدوية اللازمة لها ..

إنها تعلم أن معاش والدها لن يكفى علاج والدتها وحده ، وهذا ما أثار فى قلبها الرعب ..

شعرت فى تلك اللحظة بحاجتها الشديدة إلى (عماد) ..

إلى حنانه ، وحبه وقوته ..

شعرت أنها بدونه طيرٌ بلا أجنحة ..

أسرعت تجفف دموعها ، عندما تناهى إلى مسامعها صوت طرقات على باب مكتبها ، وقالت فى صوت متحشرج :

ـ ادخل .

كان الطارق هو موظف الحسابات بالشركة ، والذى لم يستطع إخفاء نظرات الشماتة فى عينيه ، وهو يقول :

ـ ماذا حدث بينك وبين رئيس مجلس الإدارة ؟

أجابته فى خشونة :

ـ ليس هذا من شأنك .

خيل إليها أنه ابتسم فى سخرية ، وهو يقول :

ـ من قال هذا ؟.. إننى صاحب الشأن الأول فى هذا الخلاف .

رفعت إليه عينيها المحمرتين فى حدّة ، وسألته :

ـ ماذا تعنى ؟

ترددت الشماتة واضحة وسط السخرية فى صوته ، وهو يقول :

ـ لقد أصدر رئيس مجلس الإدارة قراراً ، بمنع صرف مرتبك ، إلى أن تنفذى قرار النقل إلى (أسوان) .

شحب وجهها ، وغص حلقها ، فلم تستطع النطق ، على حين استطرد موظف الحسابات فى شماتة :

ـ ربما كانت (أسوان) شديدة الحرارة فى مثل هذا الوقت من السنة ، ولكنها ستصبح جنة فى الشتاء .

انتابتها كراهية عميقة له ..

كانت تعلم أن موظفى الشركة يشاركونه شماتته ، فهم يعرفون منذ البداية تلك الروابط الطيبة ، التى كانت

تربطها بوالد (فريال) ، ولا ريب أنهم سعدوا كثيراً بانفصام هذه الروابط ..

تغلبت كراهيتها لأسلوبهم على خوفها وضعفها ، فصرخت فى وجه الرجل :

– اخرج من مكتبى قبل أن أطردك .

فوجئت به يبتسم فى سخرية ، ويقول :

– مكتبك ؟! .. يبدو أنك لم تفهمى الأمر بعد .. إن قرارات رئيس مجلس الإدارة لها قوة القانون ، ولا يمكنك تحدّيها ، ثم إن هذا المكتب لم يعد مكتبك .

امتقع وجهها ، وهى تسأله فى ذهول :

– ماذا يعنى هذا ؟

أجابها فى شماتة :

– لقد تضمّن قرار نقلك إلى (أسوان) ، ترقيتك إلى منصب مدير حسابات فى فرع الشركة هناك ، وترقيتى أنا إلى منصب نائب مدير الحسابات فى الشركة هنا ، وهو المنصب نفسه ، الذى تشغلينه الآن ، وهكذا يصبح هذا المكتب مكتبى أنا .. ولما كان من المستحيل أن نشغل

نفس المنصب معاً ، فقد قرّر السيد رئيس مجلس الإدارة إيقافك عن العمل ، ومنع إمضائك فى دفاتر الحضور والانصراف ، بالإضافة إلى إيقاف صرف مرتبك ، وإخلاء مكتبك فورًا ، وتسليم عهدتك كلها لى ، إلى أن يتم تنفيذ قرار النقل .

شعرت (نادية) بإحكام الحصار حولها ، وبأنها لن تنجح حقًّا فى مواجهة كل هذا القدر ، من السطوة والقوة وحدها ..

كان والد (فريال) قد أحكم تدبير انتقامه ..

إن الترقية المصاحبة لنقلها ، ستجعل اعتراضها على النقل ضعيفاً ، كما أن ترقية هذا الموظف إلى منصبها يمنعها من البقاء فى الشركة ..

لقد أحكم الرجل إذلالها ، ولم يعد أمامها سوى اتخاذ قرارها ..

جذبت إحدى الأوراق الموضوعة فوق مكتبها ، وأخذت تخط عليها بضع كلمات ، على حين سألها موظف الحسابات :

- ماذا قرّرت يا آنسة (نادية) ؟

ألقت استقالتها فى وجهه ، وهى تصرخ فى غضب :

سأترك لكم كل شىء .. سأغادر هذا الوسط الموبوء .

ثم أردفت فى صرامة :

- وحينما تشاهد (فريال) ابنة رئيس مجلس إدارتك ، أخبرها أننى أهنتها ، فقد نجح انتقامها .

* * *



حمل العام التالى لاستقالة (نادية) ، كل الألم والحيرة والعذاب إليها ..

فقدت باستقالتها ثلاثة أرباع مورد رزقها ووالدتها ..

كان عليها منذ استقالت ، أن تبحث عن عمل جديد ، يكفل لها بعض الدخل ، حتى يمكنها الإنفاق على مرض والدتها المسكينة ..

ذاقت المرارة وهى تنتقل من عمل إلى عمل ، وكلها أعمال تافهة ، لا تليق بمؤهلها الجامعى ، ولا بخبراتها ..

عملت بائعة فى متجر صغير ، ثم لم يلبث صاحبه أن طردها شرّ طردة ، عندما رفضت يوماً أن تتحايل على أحد زبائن المتجر ، وتبيعه ثوباً معيباً ..

وعملت محصلة فى محل صغير للعصائر ، ثم تركته ؛ لأن صاحبه كان يغازلها دائماً فى وقاحة ..

احتملت كل هذا العذاب والمهانات من أجل والدتها المريضة ، على الرّغم من أن راتبها من تلك الأعمال الصغيرة

كان يكفى إلى حدٍّ ما لعلاج والدتها ، حتى أنها اضطرت للإقلال من وجباتها، ورتق أثوابها القديمة توفيراً للنفقات..

ولكن أكثر المواقف التى آلمتها ، وأشعرتها بالمرارة ، كان ذلك اليوم الذى التقت فيه بـ (فريال) ..

كانت ترتدى – يومها – ثوباً قديماً ، عبث به البلى ، فصار رثًّا متهالكاً ..

وكانت تقف فى محل لبيع أدوات الزينة ، وهى تخفى ثوبها البالى بمعطف رث يحمل اسم المحل ، عندما وجدت نفسها وجهاً لوجه أمام (فريال) ..

كانت (فريال) قد ازدادت بهاءً وجمالاً ، وتورَّدت وجنتاها بمزيد من الدماء ، بفضل تلك الحياة المترفة الناعمة التى تحياها ..

وكانت (نادية) قد ازدادت نحولاً وشحوباً ، بسبب حياة العذاب والهوان التى تحياها ..

يومها دهشت كلتاهما للوهلة الأولى ، ثم أسرعت (نادية) تلملم أطراف معطفها الرَّث ، لتخفى أكبر قدر ممكن من ثوبها القديم المتهالك .. أما (فريال) فقد ارتسمت

على شفتيها ابتسامة شرسة شامتة ، وتقدَّمت من (نادية) بخطوات مختالة كالطاووس ، وأشارت إلى بعض أدوات الزِّينة ، وهى تقول فى عجرفة :

– أعطينى طلاء شفاه من اللون الوردى الداكن أيتها العاملة .

ضغطت حروف كلمة (العاملة) ، وكأنها تؤكد الفارق الواضح بينهما ، إلاَّ أن (نادية) أجبرت نفسها على الابتسام ، وهى تقول :

– كيف حالك يا (فريال) ؟

حدجتها (فريال) بنظرة ساخطة ، وصاحت فى صوت مرتفع ، وهى تتعمَّد أن يسمعها صاحب المحل :

– ماذا تقولين ؟.. ألم تتعلَّمى كيف تخاطبين زبائن المحل أيتها العاملة السخيفة ؟.

احتقن وجه (نادية) ، وأرادت أن تصيح فى وجه (فريال) ، لولا أن هرع إليها صاحب المحل ، وسأل (فريال) فى ارتباك :

– ماذا حدث يا مدموازيل (فريال) ؟

أشارت (فريال) إلى (نادية) فى غطرسة ، وقالت فى تأفُّف مصطنع :

ـ هذه العاملة السخيفة ، طلبت منها طلاء شفاه ، فطلبت منى أن أبحث عنه بنفسى .

اتسعت عينا (نادية) دهشة لهذا الاتهام الجائر ، وأرادت أن تعترض ، ولكن صاحب المحل أخذ يعتذر لـ (فريال) ، قائلاً :

ـ معذرة يا آنستى .. إنها ما زالت جديدة فى العمل .

ثم التفت إلى (نادية) ، وقال فى غضب :

ـ أنت هنا لخدمة الزبائن .. هل تفهمين ؟

أحنت (نادية) رأسها فى مذلة ، وغمغمت :

ـ نعم .. أفهم .

انصرف صاحب المحل ، بعد أن كرَّر اعتذاره لـ (فريال) ، التى تألقت عيناها فى شماتة ، وهى تقول :

ـ هل نبذك (عماد بك) ؟

تجاهلت (نادية) ذلك القول الشامت ، وتناولت طلاء شفاه ورديًا داكنًا ، وضعته أمام (فريال) ، وقالت فى لهجة رسمية :

ـ هذا هو الطلاء ، الذى تطلبينه يا سيدتى .

مالت (فريال) نحوها ، وقالت فى ظفر :

ـ هل رأيت عاقبة من تجرؤ على تحدِّى (فريال) ؟

تجاهلت (نادية) هذا القول أيضاً ، وحبست دموع قهرها ، وهى تقول :

ـ هل من خدمة أخرى ؟

ثارت ثائرة (فريال) لهذا التجاهل ، الذى تبديه (نادية) نحوها ، فصرخت فى غضب :

ـ أيتها الحقيرة .

نظرت (نادية) فى ذعر إلى صاحب المحل ، الذى عقد حاجبيه غضباً ، وغمغمت فى توسُّل :

ـ أرجوك يا (فريال) .. إننى أحتاج لنقود هذه الوظيفة .

زادت لهجتها الضارعة من شماتة (فريال) ، ومن رغبتها فى إيذائها ، فعادت تصرخ ، وهى تضرب طلاء الشفاه براحتها ، وتلقى به فى وسط المحل :

ـ إننى لن أحتمل إهاناتك مرَّة أخرى ، أيتها العاملة الحقيرة :

أسرع صاحب المحل إليها مرّة ثانية ، وصرخ فى وجه (نادية) غاضباً :

ـ ماذا حدث هذه المرّة ؟

صاحت (فريال) :

ـ هذه العاملة سيئة الخلق ، لقد طلبت طلاءً ذا لون قرمزى ، فإذا هى تعطينى طلاء ورديًّا داكنًا ، وتقول فى صفاقة إن هذا كل ما لديها .

صاح صاحب المحل فى وجه (نادية) :

ـ يالكِ من سخيفة ! ! ألا تعرفين من هذه .. إن والدها ....

قاطعته (نادية) ، وهى تقول فى غضب :

ـ رئيس مجلس إدارة شركة كبيرة .. أنا أعلم هذا ، فقد كنا زميلتين فيما مضى .

صرخت (فريال) :

ـ زميلتان ؟! هل تجرئين على الكذب أيضاً ؟

ربّت صاحب المحل على كتف (فريال) ، وقال فى توسل :

ـ اهدئى يا آنستى .. اهدئى .

ثم التفت إلى (نادية) ، وصاح فى غضب :

ـ أنت مطرودة .

فرّت الدماء من وجه (نادية) ، ووقفت لحظة تحدّق فى عينى (فريال) الساخرتين ، الشامتتين ، ثم نزعت معطفها الرّث فى غضب ، وألقته فى وجه صاحب المحل ، وهى تقول :

ـ فلتذهب أنت ومحلك إلى الجحيم ..

لم تكد تغادر المحل ، حتى انهمرت دموعها فى غزارة ..

ها هى ذى تفقد وظيفة ثالثة ، وتفقد مورد رزق آخر ..

كم كرهت (فريال) فى هذا اليوم ! !

كم شعرت نحوها بالاحتقار والبغض ! !

ولم يكتف القدر بهذا القدر من العذاب والضياع لها ..

عادت فى تلك الليلة إلى منزلها ، لتجد والدتها فى النزع الأخير ..

أصابها الجنون وهى تحاول إسعافها ، ولكن الموت كان أقرب منها إليها ..

رحلت والدتها ، وتركتها وحدها لرحلة العذاب ..

وانقطع بوفاة والدتها معاش والدها أيضاً ، إلا من قدر ضئيل تحصل هى عليه – طبقاً للقانون – حتى تحصل على عمل ثابت ، أو تتزوَّج ..

وحتى هذا القدر الضئيل لم تحصل عليه بسهولة ..

عانت الأمرَّين فى التنقُّل بين دواوين الحكومة ، وإدارة المعاشات، حتى حصلت أخيراً على جنيهات قليلة، تفى بأجر المنزل ، وقليل من الزّاد ..

وازداد شحوبها ونحولها .. حتى برزت عظامها ، وبدا وكأنها قد تقدمت فى العمر أعواماً وأعواماً ..

حتى انقضى عام كامل منذ قدمت استقالتها ..

فى نفس اليوم الذى يوافق مرور عام كامل على ذلك، كانت تقطع شوارع القاهرة فى ثوب رَثّ ، وحذاء قديم بالٍ ، بحثاً عن وظيفة تسد رمقها ..

كانت تترنح فى مشيتها ، عندما توقفت إلى جوارها سيارة فاخرة ضخمة ، من ذلك النوع الذى يوحى بثراء صاحبه ، وسمعت صوتاً يهتف فى فرح يختلط بالدهشة :

– (نادية) ؟!

تسمَّرت قدماها ، ولم تصدِّق أذناها للوهلة الأولى، ثم استدارت فى بطء ، وتطلعت إلى قائد السيارة الفاخرة ..

لم تكد تفعل ، حتى اختلج قلبها بين ضلوعها ، وارتعدت شفتاها ، وهى تهتف فى سعادة :

– (عماد) !! .. غير معقول .

ثم هوت فاقدة الوعى ، وكأن جسدها الهزيل لم يعد يحتمل مزيداً من المفاجآت .

* * *



٩ ـ الأمل ..

« أعتقد أنها تعانى ضعفاً فى مكوّنات الدم ، فهى شديدة الهزال ، ويبدو أنها تمرّ بأزمة نفسية ، فهى ترتدى ملابس سوداء » .

تناهت هذه الكلمات إلى مسامع (نادية) ، وهى تستعيد وعيها شيئاً فشيئاً ..

فتحت عينيها فى بطء ، لتدرك أنها ترقد داخل حجرة الطوارئ ، بأحد المستشفيات الاستثمارية ، وعلى بعد خطوات منها يقف (عماد) ، يتحدث فى اهتمام إلى الطبيب الشاب ، الذى نطق هذه الكلمات ..

خفق قلبها فى سعادة ، وهى تتأمله ، ثم تنهدت فى ارتياح ، فالتفت إليها ، وأسرع نحوها ، ثم ضغط براحته على كفها الهزيلة فى حنان ، فهمست وهى ترتجف سعادة :

ـ ماذا حدث ؟.. ما الذى أتى بى إلى هنا ؟

أجابها (عماد) فى صوت بالغ الحنو :

ـ لست أدرى ماذا أصابك ، ولكن الطبيب يقول إنك تعانين ضعفاً شديداً ، وآلاماً نفسية كبيرة .

عادت تكرّر سؤالها ، وقد أسعدها اهتمامه البالغ بها :

ـ وما الذى أتى بى إلى هنا ؟

جلس على طرف فراشها ، وقال وهو يحتفظ بكفها بين راحتيه :

ـ كنت قد انتهيت من بعض الأعمال ، واتخذت طريقى إلى الفيلاّ ، عندما رأيتك .

ابتسم لحظة ، ثم عاد يقول :

ـ إننى لم أعرفك للوهلة الأولى فى الواقع ، فقد ازددت نحولاً وشحوباً ، كما أن ....

بتر عبارته فجأة ، وتصاعدت دماء الخجل إلى وجهه ، ولكنها فهمت ما يعنيه ..

كان يقصد أن ثوبها رثّ على نحو لم يعهده فيها من قبل ..

أورثتها عبارته شعوراً مضاعفاً بالخجل ، ولكن وجنتيها لم تتورّدا ..

أو ربما فعلتا ، ولكن شحوب وجهها أخفى ذلك ، وحاولت أن تدارى ثوبها الرّث ، إلا أن الدفء الذى تشعر به وهو يحتضن كفها بين راحتيه ، جعلها ترقد مستسلمة ساكنة ، فى حين أسرع هو يستطرد :

- أسعدتنى رؤيتك بعد عام كامل، فتوقفت بسيارتى إلى جوارك ، ولم أكد أناديك حتى هتفت باسمى ، وفقدت الوعى ..

ثم ضحك ، وواصل قائلاً :

- لقد أربكتنى كثيراً فى الواقع ، ولكننى أسرعت أحملك بسيارتى إلى هنا .

شعرت (نادية) بالأسف فى هذه اللحظة ؛ لأنها كانت فاقدة الوعى ، عندما حملها (عماد) ..

ودَّت لو أنها تظاهرت بفقدان الوعى مرة أخرى ، حتى تشعر به وهو يحملها بذراعيه القويتين ، كما يحمل الرجل عروسه فى ليلة الزفاف ..

شعرت مع مرأى (عماد) ، أن كل عذابها قد ذاب ، فى بحر الحنان الذى يطل من عينيه ..

انمحى عذابها ، وحلَّ محله أمل كبير ، فنهضت من فراش المرض وهى تقول :

- دعنا نغادر هذا المكان .

ابتسم وهو يقول :

- نعم .. فهو ليس المكان المناسب لك .

تظاهرت بالضعف حتى تستند إليه ، وهما يغادران المستشفى ، ولكنها لم تكد تلمح سيارته الفاخرة حتى هتفت فى دهشة :

- يا إلهى ! ! أتمتلك هذه السيارة الرائعة ؟

ابتسم وهو يقودها داخل السيارة ، ويحتل مقعد القيادة ، وقال :

- إننى أمتلك اليوم نصف أكبر شركة سياحية فى الشرق الأوسط .

هتفت فى سعادة :

- أنت تستحق أكثر من ذلك يا (عماد)، وفقك الله .

أدار محرِّك السيارة ، وانطلق بها ، ثم سألها فى اهتمام :

- ماذا أصابك يا (نادية) ؟.. أنت تبدين ذابلة تماماً .

شعرت برغبة فى أن تقص عليه عذابها وهوانها طيلة العام الماضى ، ولكن كرامتها أبت عليها أن تبدأ مشاعره نحوها بالشفقة والعطف ، فاكتفت بأن قالت :

- لقد استقلت من عملى ، وتوفيت والدتى .

نظر إليها فى عطف ، وقال :

- هل عثرت على عمل آخر ؟

أطرقت برأسها ، وهى تقول فى خجل :

ــ ليس بعد .

عقد حاجبيه لحظة فى صمت ، ثم قال فى هدوء :

ــ حسناً فعلت ، فلدىَّ وظيفة مناسبة لك .

هتفت فى فرح :

ــ أحقًّا ؟!!

أجابها فى هدوء :

ــ نعم .. وأعتقد أنها وظيفة مناسبة ، وسيروقك الأجر بإذن الله .

لم تحاول أن تسأله عن الأجر ..

إنه لم يعنها كثيراً فى الواقع ..

يكفيها أن تعمل إلى جواره ، ولو بدون أجر ..

تنبهت فجأة إلى أنه قد أوقف سيارته ، وقال مبتسماً :

ــ والآن هل تقبلين دعوتى إلى عشاء عائلى ، مع والدى ووالدتى ؟

احمرَّ وجهها خجلاً ، وأدارت رأسها لتخفى ابتسامة الفرح التى ملأت وجهها ، فوقع بصرها على فيلاً أنيقة تذكرها جيداً ، فهتفت :

ــ يا إلهى !! أليست هذه هى الڤيلاَّ ، التى وعدت يوماً بامتلاكها ؟

ابتسم وهو يقول فى فخر :

ــ لقد فعلت .

ارتجف قلبها فرحاً لهذا النجاح الذى وصل إليه ، وسارت إلى جواره إلى داخل الڤيلاَّ فى سعادة ، حتى أنها نسيت هزالها وضعفها ، واستقبلها والداه فى ترحاب ، فما زالا يذكرانها منذ كانت تزورهما بصحبة (فريال) ..

هتفت والدة (عماد) ، وهى تحتضنها فى حبٍّ :

ــ يا إلهى !! كم نحلت يا (نادية) ؟!! ألم تتناولى طعامك منذ آخر مرة رأيتك فيها ؟

لم تدر الأم كم كانت عبارتها صادقة ..

إن الطعام الذى تناولته (نادية) طوال هذا العام ، كان يكفى لبقائها على قيد الحياة فقط ..

إنها حتى لم تستطع التهام قدر كاف من الطعام الشهى المتنوِّع ، الذى أعدته والدة (عماد) ..

كان جسدها قد اعتاد كميات الطعام الضئيلة ، وكأن معدتها قد انكمشت ، بقدر ما كانت تتناول من طعام ..

إنها أيضاً لم تكن تريد أن تأكل .. كان يكفيها التطلع إلى وجه (عماد) ، وسماع دعاباته فى أثناء العشاء ..

حاولت أم (عماد) إقناعها بقضاء ليلتها معهم ، بعد تناول الطعام ، ولكنها اعتذرت فى خجل ، وطلبت الانصراف ، فقال (عماد) فى اهتمام :

ـ سأوصلك يا (نادية)، فهناك ما أرغب فى التحدُّث معك بشأنه .

اختلج قلبها مع عبارته ..

حاولت استنتاج ما يريده منها ، ولكنها عجزت ..

جمح بها الخيال ، فتصوَّرته يطلب منها الزواج ..

لم يكن هناك ما يبرِّر إقدامه على هذا ، ولكنها تركت لخيالها العنان ..

كانت تشعر بالسعادة لمجرَّد تصوُّر إقدامه على ذلك ..

أمه نفسها تمنَّت ذلك ، فهى تعرف (نادية) منذ زمن طويل ، وترى فيها الإنسانة المناسبة لابنها ؛ لذا فقد انحنت على أذن زوجها ، وهمست فى سعادة :

ـ يالها من فتاة مهذبة طيبة القلب ! ! إنها تصلح زوجة رائعة لـ (عماد) .

ابتسم الأب ، وقال :

ـ هذا شأنه .

أما (عماد) ، فقد ظل صامتاً معظم الطريق إلى منزل (نادية) ، وتركها تتمادى فى أحلامها ، وتبنى قصوراً فى الخيال والسعادة والحبّ ، وقبل أن يصل إلى منزلها ، أوقف سيارته فجأة ، ومال إليها يسألها فى اهتمام :

ـ هناك أمر يشغلنى كثيراً يا (نادية) ، وأرجو أن أجد لديك جواباً له .. فهل يمكننى ذلك ؟

ازداد اختلاج قلبها ، وتصاعد الأمل فى أعماقها ، وهى تسأله فى خجل :

ـ سل ما بدا لك يا (عماد) .

جاء صوته مفعماً باللهفة ، وهو يسألها فى حرارة :

ـ كيف حال (فريال) ؟

وتحطم فى قلبها الأمل .

* * *



١٠ ـ المفاجأة ..

عاد والد (فريال) إلى منزله والدهشة بادية فى ملامحه، وهتف يدعو إليه زوجته وابنته ، فهرعا إليه، وقد انتقلت إليهما دهشته ، وسألته زوجته فى اهتمام :

ـ ماذا حدث ؟

هتف وهو يلوِّح بكفيه :

ـ لن تصدِّقا .. لن تصدِّقا .

صاحت (فريال) فى عصبية :

ـ أخبرنا أولاً ، ولنر هل نصدق أم لا ؟

جلس على مقعد مواجه لهما ، وقال وهو يحرِّك ذراعيه فى عصبية :

ـ أنتما تعلمان أن الشركة تقيم فى كل عام رحلة للحج ، وفى هذا العام قرَّر مجلس الإدارة إسناد تلك المهمة ، لواحدة من كبريات شركات السياحة فى الشرق الأوسط ، وهى شركة النسر للسياحة ، هل سمعتما عنها ؟

هتفت الأم :

ـ ومن لم يسمع عنها ؟ إنها أنجح شركات السياحة فى مصر ، على الرغم من أنها شركة حديثة جدًّا .

قال الوالد :

ـ هذا صحيح .. ولقد أرسلت أطلب مقابلة صاحب الشركة ، حتى يمكننى الاتفاق معه على أسعار مناسبة ، ولقد حضر إلى مكتبى بالفعل ، وهذا مبعث دهشتى .

هزَّت (فريال) كتفيها فى غطرسة ، وقالت :

ـ وما الذى يدهشك فى هذا يا أبتاه ؟.. أنت رئيس مجلس إدارة شركة كبرى ، و ....

قاطعها والدها :

ـ ليس قدومه ما أدهشنى يا (فريال)، بل شخصيته .. هل تدريان من هو ؟

لم تنطق إحداهما ، وإن بدا التساؤل واضحاً فى عينيهما ، فاستطرد الوالد فى لهجة بطيئة :

ـ خطيبك السابق (عماد) يا (فريال) .

اتسعت عينا (فريال) ذهولاً ، من هول المفاجأة ، على حين هتفت أمها فى دهشة :

ـ (عماد) ؟!. ومن أين له أن يمتلك مثل تلك الشركة العملاقة ؟

قلَّب الوالد كفيه ، وقال :

– لست أدرى ، ولكنه يمتلك شركة النسر للسياحة ، وسيارة فاخرة من أحدث طراز ، وفيلاً أنيقة فى مصر الجديدة .

غمغمت (فريال) فى دهشة :

– كل هذا فى عام واحد .

قالت أمها فى حسرة :

– ياللخسارة ! ! يا ليتك أبقيت على خطبته يا (فريال) .

هزّ الأب رأسه ، وقال فى أسف :

– لقد حاولت دعوته لتناول العشاء معنا ، ولكنه رفض بلباقة .

عادت الأم تغمغم :

– يا للخسارة ! !

ساد الصمت لحظة ، ثم رفعت (فريال) حاجبيها فى غرور ، وقالت :

– لا تخشى شيئاً يا أماه .. سيخطبنى (عماد) مرة ثانية .

سألها والداها فى آن واحد ، وبصوت يشف عن لهفتهما :

– كيف ؟

تألقت ابتسامة متغطرسة على شفتيها ، وهى تجيب :

– هذا شأنى .

كانت تثق كثيراً فى قوة جمالها الفتان ، وجاذبيتها المتألقة ؛ لذا فقد حرصت فى اليوم التالى على ارتداء أجمل أثوابها ، وإتقان زينتها فى براعة ، وصففت شعرها البنى المحمر ، على نحو زاد من تألق وجهها وحسنه ..

كانت فى هذا اليوم صورة للفتنة المجسمة ..

وذهبت إليه ..

كانت تصعد فى سلالم الشركة إلى مكتبه ، عندما وجدت نفسها أمام (نادية) ..

تراجعت كلتاهما فى دهشة ، ثم وقفتا تحدّق كل فى وجه الأخرى فى تحدٍّ ..

كانت (نادية) فى هذا اليوم تختلف ..

كانت قد استعادت بعضاً من جمالها وتأنقها ، بعد أن عملت فى الشركة ، إلى جوار (عماد) ..

ولكن مفاجأة رؤية (فريال) ، أعادت إلى وجهها بعض شحوبه ..

لم تكن قد نسيت بعد ذلك الإحباط ، الذى ملأ قلبها ، عندما سألها (عماد) فى لهفة عن (فريال) ..

كانت يومها تظن أنه سيبثها غرامه لأول مرة ، ولكنها فوجئت بأنه ما زال يهتم بأمر (فريال) ..

يومها بكت كما لم تبك من قبل ..

بكت حظها العاثر ، الذى جعلها تذوب فى هوى رجل لا يهتم بها مطلقاً ، ويفيض قلبه بحب فتاة لا توليه أدنى قدر من الاهتمام ..

ولكنها رضيت بقدرها ..

ارتضت أن تحيا إلى جواره ، وتكتفى برؤيته فى الشركة ، بدلاً من أن تعيش إلى جانبه زوجة ..

ارتضت عذاب الحرمان ، والعيش بلا أجنحة ..

ولكن عودة (فريال) أرجفت قلبها ، وأنشأت فيه مخاوف جديدة ..

كانت تعلم أن (عماد) سيسترجع حبه القديم لـ (فريال) ، فور رؤيته لها ..

كانت تعلم أن (فريال) ستهزمها بجمالها الفتان ، هذه المرّة أيضاً ..

ظلت تحدّق فى وجه (فريال) ، إلى أن قالت هذه الأخيرة فى خشونة :

ـ ماذا تفعلين هنا ؟

أجابتها (نادية) فى هدوء :

ـ كان ينبغى أن أسألك أنا هذا السؤال ، فأنا أتولى منصب مدير الحسابات هنا .

رفعت (فريال) حاجبيها فى دهشة ، ثم لم تلبث أن ابتسمت فى سخرية ، وقالت :

ـ هذا يبدو واضحاً ، فها قد استرد جسدك بعض وزنه ، واختفى ثوبك البالى .

عقدت (نادية) حاجبيها فى غضب ، وقالت :

ـ دوام الحال من المحال يا (فريال) .

ضحكت (فريال) فى سخرية ، وقالت :

ـ هذا صحيح .. وستؤمنين بهذا أكثر بعد أن أقابل (عماد) .

تركتها فجأة ، وسارت فى خطوات مختالة إلى مكتب (عماد) ، فغمغمت (نادية) فى ألم :

- يبدو أنك ستنتصرين هذه المرَّة أيضاً يا (فريال) .

لم تسمع (فريال) هـذه العبـارة ، ولكنها كانت تشعر بها قوية فى أعماقها ؛ لذا فقـد خطت إلى مكتب (عماد) فى ثقة ، وهتفت وهى تندفع نحوه :

- (عماد) .. كيف حالك ، لقد أوحشتنى كثيراً .

أسعدها أن لمحت هذا التألق فى عينيه ، وهو يصافحها فى لهفة ، قائلاً :

- يا إلهى !! كنت أنتظر حضورك إلى هنا بفارغ الصبر يا (فريال) .

جلست أمامه فى وضع زاد من ملامحها إغـراءً ، وقالت :

- إننى أفتقدك كثيراً يا (عماد) ، بعد أن فرَّقت بيننا هذه اللعينة .

عقد حاجبيه وهو يسألها :

- من هذه اللعينة ؟

هتفت فى انفعال :

- (نادية) ، ألا تذكرها ؟ .. إنهـا أخبث إنسـانة عرفتها فى حياتى .. تصوَّر أنها أوهمتنى - يومئذ - أنك

غارق فى حبها ، ولم أحتمل بالطبع ، فتعـاملت معك بأسلوب سخيف ، وأنهيت خطبتنا .

ثم مالت نحوه ، وهى تردف فى دلال :

- ولكننى بكيت طويلاً فى ذلك اليوم يا حبيبى .

ازداد انعقاد حاجبيه ، وهو يغمغم :

- (نادية) قالت لك ذلك ؟!

هتفت فى حماس مفتعل :

- نعم يا حبيبى .. إنها إنسانة ماكرة لعينة .

انحنى (عماد) فجأة على جهاز الاتصـال الداخلى ، المثبت فوق مكتبه ، وقال فى هدوء :

- اطلب من الآنسـة (نادية) الحضـور إلى مكتبى فوراً يا (سلطان) .

ارتبكت (فريال) أمام هذا الإجراء ، وقالت :

- لماذا تدعوها ؟.. هذا أمر يخصنا وحدنا .

ابتسم وهو يسألها فى هدوء :

- عجباً !!.. هل كنت تعلمين أنها تعمل هنا ؟

ازداد ارتباكها وهى تهتف :

- أنا ؟!.. مطلقاً .. ولكن ....

قبل أن تتم عبارتها دخلت (نادية) إلى الحجرة ، وقالت فى حيرة :

– هل طلبت حضورى يا (عماد) بك ؟

أشار (عماد) إلى مقعد مجاور لـ (فريال) ، وقال :

– نعم يا (نادية) .. اجلسى هنا ، فهناك اتهام موجه إليك .

هتفت (فريال) فى ارتباك :

– (عماد) ؟!

على حين قالت (نادية) فى دهشة :

– اتهام ؟!.. لى أنا ؟!

قال (عماد) فى هدوء :

– (فريال) تقول إنك سبب فراقنا ، وإنك أخبرتها أننى غارق فى حبك .

هتفت (نادية) فى دهشة :

– أنا ؟!

صاحت (فريال)، وهى تخشى أن يفسد موقفه خطتها :

– (عماد) .. اطرد هذه الفتاة ، ودعنا نتحدث وحدنا .

استدار إليها (عماد) فى غضب ، وصاح :

– لماذا يا (فريال)؟.. ألا يكفيها أن والدك أجبرها على ترك عملها ، ودفعها إلى العذاب والهوان طيلة عام كامل ؟.. ألا يكفيك ما سببتموه لها من ألم طيلة هذا العام ؟

لم تكن الدهشة من نصيب (فريال) وحدها هذه المرّة ..

(نادية) أيضاً أصابتها الدهشة، فهى لم تخبره بحرف واحد من هذا ..

لم تطل دهشتها ، فقد غمغمت (فريال) فى شحوب :

– أهى التى أخبرتك ذلك ؟

هزّ رأسه نفياً ، وقال فى حنق :

– بل والدك الذى فعل يا (فريال) .. أخبرنى ما فعله بهذه المسكينة فى تفاخر ، وكأنه يستحق جائزة عن نذالته وخسته .

صاحت (فريال) :

– ولكنك تحبنى يا (عماد) .. لقد لمحت اللهفة فى عينيك وأنت تستقبلنى ، وأنت نفسك قلت : إنك كنت تنتظر حضورى إلى هنا بفارغ الصبر ..

ابتسم (عماد) فى سخرية ، وقال :

– هذا صحيح ، ولكننى لم أكن متلهفاً لحضورك إلى هنا لأننى أحبك يا (فريال) ، ولكن لأننى أقسمت يوماً أن أجعلك تندمين على تركك لى .

شحب وجهها ، وهى تقول :

– ماذا تعنى ؟

أجابها فى قسوة :

– لقد حققت كل ما كنت تعايريننى بفقده يا (فريال) .. لقد أصبحت أمتلك سيارة فاخرة ، بدلاً من سيارتى الصغيرة التى كنت تسخرين منها دوماً ، وينبغى أن تعلمى أننى ما زلت أحتفظ بالسيارة الصغيرة ، وأعشق التنزُّه بها ، وأصبحت أمتلك أيضاً نفس الفيلاً التى أعجبتك يوماً ، ولكننى لم أعد أحبك يا (فريال) .

تألق بريق من السعادة فى عينى (نادية) ، واختلج قلبها فى فرح ، وهى تسمع هذا التصريح من (عماد) ، فى حين انهار خيلاء (فريال) ، وهى تغمغم فى شحوب :

– مستحيل يا (عماد) .. مستحيل .

رفع (عماد) رأسه فى كبرياء ، وواصل حديثه فى قسوة ، قائلاً :

– هل تعلمين لماذا طلبت من (نادية) الحضور إلى هنا يا (فريال) ؟.. لتشهد مذلتك ، كما شهدت مذلتها ..

ثم أشار إلى باب حجرته ، وقال فى صرامة :

– لم يعد لك مكان فى حياتى يا (فريال) .. الآن فقط أستطيع أن أقول هذا فى ارتياح .. والآن غادرى حياتى ومكتبى ، قبل أن آمر ساعى المكتب بطردك .. اخرجى يا (فريال) .

* * *



١١ ـ وداعا للعذاب ..

كان (عماد) يتصوَّر أن انتقامه من (فريال) سيبعث فى جسده الراحة ، وفى نفسه الظفر والأمان ، فقد ظل طيلة عام كامل يحلم بهذا اليوم ..

ولكن هذا لم يحدث ..

لم يكد يحوِّل انتقامه إلى حقيقة ، حتى شعر بالحنق على نفسه ، وبمزيد من الخواء فى أعماقه ..

كشف أنه ما زال يحمل قلب نسر بين جنباته ..

والنسر لا يعشق الانتقام ..

انتابه الندم بعض الوقت ؛ لأنه هاجم (فريال) ..

لم يكن مبعث ندمه بقايا من الحبِّ فى داخله ، ولكنها كانت رجولته ..

شعر فجأة أنه ما كان ينبغى لرجل قوى مثله ، أن يهاجم فتاة مثلها ، فمهما بلغ خبثها ، ومهما بلغت غطرستها ؛ فهى لم تزل فتاة ضعيفة صغيرة ..

انتزع هذا الشعور من قلبه ، تلك السعادة التى تصوَّر أن تملأ حياته بعد الانتقام ..

(نادية) أيضاً شعرت بالحزن لما أصاب (فريال) ..

كانت (نادية) مخلوقاً نادراً فى العالم ..

على الرغم من كل ما فعلته بها (فريال) ، إلا أنها لم تسعد برؤيتها ذليلة ..

لقد شعرت بالحزن من أجلها ، عندما شاهدتها تنهض من أمام (عماد) شاحبة ، مرتجفة الساقين ، زائغة البصر ، كيمامة صغيرة انقض عليها نسر قوى بلا رحمة ..

وجدت نفسها تتقدَّم منها ، وتربِّت على كتفها فى حنان ، وتقول :

ـ لا تحزنى يا (فريال) ..

فوجئت بـ (فريال) تدفعها بعيداً ، وهى تهتف فى سخط :

ـ إليك عنى .

ثم تندفع إلى الخارج ..

وقفت (نادية) صامتة حزينة لحظة ، ثم التفتت إلى (عماد) ، وعيناها تحملان عتاباً كبيراً ، وهمست فى حزن :

ــ ما كان ينبغى أن تفعل بها هذا .

أطرق برأسه فى حزن ، وغمغم فى ألم :

ــ قدَّر الله ، وما شاء فعل .

ظل كلاهما صامتاً مطرقاً بعض الوقت ، ثم غمغمت (نادية) :

ــ هل تريد منى شيئاً آخر ؟

هزَّ رأسه فى بطء ، وقال :

ــ سأدعوك إذا ما أردت شيئاً .

غادرت (نادية) مكتبه وهى حيرى ، بين شعورها بالحزن من أجل (فريال) ، وتلك السعادة المتدفقة فى عروقها ، بعد أن علمت أن (عماد) قد نبذ حبَّ (فريال) إلى الأبد ..

كانت سعادة يشوبها الكثير من القلق والحزن ..

صحيح أنه لم يعد يحبُّ (فريال) ، ولكنه ما يزال لا يشعر بها هى ..

لم تزل بالنسبة إليه مجرد فتاة ، أولاها الكثير من العطف والرعاية ، ولكن قلبه لم يخفق يوماً بحبها ...

ما زال الطريق أمامها طويلا ، ولكنها على الأقل لم تعد تتعذب ..

لقد ودَّعت العذاب منذ التحقت بالعمل فى شركته .. وداعاً للعذاب ، حتى ولو لم يحبها (عماد) ..

أما (عماد) ، فقد كان قلبه فى هذه اللحظة يمتلئ بالعذاب ..

عذاب من نوع جديد ..

لقد كانت رغبته فى الانتقام ، هى المحرِّك الأول لحماسه ، من أجل العمل والتفوُّق ..

والآن انهار هذا الحماس دفعة واحدة ..

كان قد نسى عشقه القديم للطيران ، والتحليق فى السماء ..

نسى أنه نسر ، فى غمرة العمل ، والرَّغبة فى الانتقام .

والآن عاد إليه عشقه جارفاً قويًّا ..

انتابه نفس ذلك الاشتهاء ، الذى طالما ملأ جوانحه وهو بين السحاب ..

ودَّ فى هذه اللحظة لو أنه استطاع أن يمتطى طائرته ، ويقلع بها بعيداً .. بعيداً ..

أغلق عينيه ، وتصوَّر نفسه فى كابينة طائرته القديمة .

خيل إليه أن النسر المرســوم على مقدمتها يبتسم ، ويضرب الهواء بجناحيه فى فرح ..

خيل إليه أنه يجذب عصا القيادة ، فترتفع طائرته ، وترتفع ، ويرتفع معها خلجان قلبه وخيلاؤه ..

انتزعه فجأة أزيز جهاز الاتصال الداخلى من أحلامه، فانحنى نحوه يسأل فى عصبية :

– ماذا هناك ؟

أتاه صوت سكرتيره ، يقول فى اهتمام :

– هناك رجـل يطلب مقابلتك دون موعــد سابق يا سيدى .

سأله فى ضيق :

– من هو ؟

أجابه السكرتير :

– إنه يدعى (فتحى عبد السلام) .

تهللت أسارير (عماد) ، وهتف فى سعادة :

– دعه يدخل بحقِّ السماء .

ثم قفز من مقعده ، واستقبل صديقه القديم بين ذراعيه ، وهو يهتف فى سعادة :

– (فتحى) .. كم اشتقت لرؤيتك يا صديقى ! !

صافحه (فتحى) فى حرارة ، وربَّت على كتفه فى قوة ، وهو يقول :

– كيف حالك أيها النسر ؟.. إننا لم نلتق منـــذ عام كامل .

لوَّح (عماد) بكفه ، وهو يقول :

– رويدك يا (فتحى) ، إننى لم أعد نسراً .

مطَّ (فتحى) شفتيه ، وقال فى حماس :

– النسر يبقى نسراً ، وإن لفظته السماء يا صديقى ، ولا تنس أنك ما زلت تحمل ترخيص الطيران، فإصابتك البسيطة تمنعك من قيادة الطائرات المقاتلة فحسب .

ابتسم (عماد) فى حزن ، وقال :

– النسور فقط هى المقاتلة يا صديقى .

ثم أردف فى لهجة مرحة ، وكأنه يحاول الفرار من الذكرى :

– كيف حالك أنت يا صديقى ؟

ابتسم (فتحى) وهو يقول :

– يبدو أننى أشعر بالغيرة منك دائماً يا (عماد) .. لقد قدّمت استقالتى أنا الآخر .

هتف (عماد) فى دهشة :

– يا إلهى ! !

ثم أردف فى حماس صادق :

– شركتى تحت أمرك يا صديقى ، ستفيدنا خبرتك كثيراً و ....

رفع (فتحى) كفه يقاطعه ، وابتسم وهو يقول :

– إننى لا أبحث عن وظيفة يا صديقى ، شكراً لك ، لقد أتيت أعرض عليك مشاركتى فى مشروع جديد .

اعتدل (عماد) ، وقد عاد إليه حماسه للعمل ، وسأله :

– هاتِ ما لديك يا صديقى .

اتسعت ابتسامة (فتحى) ، وهو يقول :

– ما رأيك فى امتلاك سربٍ من الطائرات المقاتلة دفعة واحدة ؟

اتسعت عينا (عماد) دهشة ، وغمغم فى حيرة :

– ولكن هـذا مسـتحيل يا (فتحى) .. الدولة وحدها تمتلك المقاتلات و ....

عاد (فتحى) يقاطعه ، قائلا :

– هنـاك أسراب مقـاتلة يحقّ للمرء امتلاكها يا(عماد)، ولكنها لا تقاتل الطائرات الأخرى، بل تقاتل مخلوقات أخرى تؤذى المجتمع .

ظهرت الحيرة على وجـه (عماد) ، وهو يسأله :

– ماذا تعنى ؟.. إننى لم أفهم بعد .

قال (فتحى) فى جدية واهتمام :

– هـل تعـلم كم تخسر الدولة سنوياً بسبب تلك الحشرات التى تلتهم جزءاً كبيراً من محصولاتنا الزراعية ؟

تألقت عينا (عماد) ، عندما فهمَ أخيراً ما يعنيه رفيقه ، فهتف :

– هـل تعنى أن نمتلك سرباً من طائرات رش المبيدات ؟

ابتسم (فتحى) وهو يومئ برأسه إيجاباً ، ويقول :

ـ هـذا ما أعنيـه بالضبط ، ولقـد حصلت على ترخيص بإنشاء الشركة ، واستيراد الطائرات الخاصة لذلك ، ولقـد تعجلت الأمور ، فاستخرجت كل ذلك باسمينا معاً .

ابتسم (عماد) ، وهو يغمغم :

ـ يا إلهى !!

تابع (فتحى) قوله فى هدوء :

ـ إننى لا أمتلك المـال الكافى لإنشاء مثـل هـذا المشروع الضخم ؛ لذا فقد كان وجود شريك بالعمل أمر حتمى ، وكنت أنت الشخص الذى وقـع اختيارى عليـه ؛ نظراً لثقتى فى أسلوبك الشريف ، والروح المغامرة التى تملأ نفسك ، ولقـد فضّلت أن أعرض الأمر عليك بأسـلوب عملى ، فاستخرجت الأوراق اللازمة أولاً .. ما رأيك ؟

استند (عماد) إلى ظهر مقعده ، وشبّك أصابع كفيه أمام وجهه ، وظل صامتاً فترة طويلة ، ثم اعتدل فجأة ، وقال فى حماس :

ـ إننى أوافق يا (فتحى) .

تهللت أسارير (فتحى) وهو يهتف :

ـ كنت واثقاً من ذلك .

مال (عماد) على جهاز الاتصال الداخلى ، وقال فى حماس :

ـ اطلب من (نادية) الحضور إلى مكتبى .

هرعت (نادية) على فورًا لتلبية النـداء ، وخفق قلبها فى سعادة ، عندما رأت هذا الحماس الذى يملأ نفس (عماد) ، وهو يشرح لها المشروع الجديد ، ويطلب منها إجراء الدراسات المالية اللازمة له ..

تألقت عيناها فى حنان وحبّ ، حينما تبينت أنه قد اجتاز مرحلة الألم ، والندم ، والعذاب ..

رقص صوتها فرحاً ، وهى تسأله :

ـ هل من شىء آخر ؟

أجابها فى حماس :

ـ كلاّ يا (نادية) ، ولكننى أريد هذه الدراسة فى أسرع وقت ممكن .

انصرفت (نادية) فى سعادة ، ولم تكد تغلق الباب خلفها حتى هتف (فتحى) :

- يا لك من محظوظ يا (عماد)! ! هذه الفتاة واحدة من حوريات الجنـة برقتها وطيبتها ، وكل ذلك الحنان فى أعماقها .

ابتسم (عماد) ، وقال :

- إنها فتاة ممتازة .

ابتسم (فتحى) بخبث ، وهو يقول :

- فقط ؟!

عقد (عماد) حاجبيه ، وقال فى دهشة :

- هذا يكفى .. إنها مجرّد مديرة حسابات و ....

قاطعه (فتحى) :

- هل أنت أعمى ، أم أنك تتظاهر بالغباء ؟. استيقظ يا صديق .. إن هذه الفتاة غارقة فى حبّك حتى النخاع .. إنها تعشقك ، وليقطع ذراعى إن لم يكن هذا صحيحاً .

* * *

١٢ - هل أحبها ؟..

غادر (فتحى) مكتب (عماد)، بعد أن زرع فى نفسه الحيرة والتساؤل ، حتى أن (عماد) طلب من سكرتيره ألا يسمح لأحد بمقابلته ساعة كاملة ، ثم مال ليسند مرفقه إلى سطح مكتبه ، واعتمد بذقنه على راحته، وراح يقلب الأمر فى رأسه ..

ترى .. هل تحبه (نادية) حقًّا ؟..

هل امتلأت عيناه بالغشاوة ، حتى أنه لم يبصر ذلك ؟..

عادت إلى ذاكرته فجأة مواقف شتى ، اتخذت فى عقله هذه المرّة صوراً جديدة ..

تذكر خجلها ، وتورُّد وجهها ، الذى طالما أثار دهشته ، كلما التقيا فى منزل (فريال) ..

تذكر يوم الحادث الذى أصاب كفه .. لقد نسيت يومها الجرح النازف فى جبهتها، لتسأله فى لهفة عما أصابه ..

تذكر نظراتها الحنون، حينما كان يقص على (فريال) ما أصابه ..

خيل إليه أن صوتها يعود ، لينساب بكل حنانه وحبه

ودفئه إلى أذنيه ، عندما كانت تحادثه فى سيارته ، يوم تركته (فريال) ..

استرجع ذهنه ذلك الهتاف ، الذى يفيض بالحبّ ، والذى أطلقته قبل أن تفقد وعيها فى الطريق ..

استعاد كل هذه الأحداث ، واعترف أنه كان أعمى ..

كشف أن (نادية) كانت تحبه منذ البداية ، وكان هو غافلاً عنها ..

كشفه هذا أزال من قلبه كل أثر للحقد على (فريال) ..

تراءى له أن (فريال) لم تكن مخطئة إلى هذا الحدّ ..

لقد أحبت فيه غلافه الخارجى ، دون أعماقه ، وكذلك فعل هو معها ..

هى لم تر فيه سوى وسامته فى زيه العسكرى ، وهو لم ير فيها سوى جمالها الفتان ..

لم يكن من العجيب إذن أن تنهار علاقته بـ (فريال) ، فقد كانت منذ البداية علاقة واهية سطحية ..

علاقة مظهر لا جوهر ..

ولكن (نادية) تختلف ..

لقد ظل حبها له قويـاً مخلصاً ، لم تنل منه الأقدار والظروف ..

يا لقلبها الذهبىّ النادر ..

شعر بحاجته إلى زوجة فى مثل إخلاصها ووفائها ..

تعاظم شعوره هذا ، حتى كاد يذهب إليها ، ويطلب منها الزواج ، لولا أنه تذكر أنه لم ينه علاقته بـ (فريال) تماماً إلا هذا الصباح ..

أدهشه أن يتذكر أن موقفه الصارم مع (فريال) ، لم يمض عليه أكثر من بضع ساعات ..

بضع ساعات بدت له كالدهر ..

خشى فى هذه اللحظة أن يكون متسرعاً ..

صحيح أن (نادية) تحبه ، ولكن هل يحبها هو ؟..

كان يخيفه أن يكون اهتمامه بـ (نادية) وليد ذلك الفراغ ، الذى أحس به بعد انصراف (فريال) من مكتبه ذليلة ..

كان يخيفه أن يظلم القلب الذى أحبه هذه المرّة ..

ظلت حيرته قوية فى أعماقه ، حتى بعد أن عاد إلى منزله ، ولم يكن من العسير على والديه أن يلحظا حيرته ؛ فهو لم يتناول سوى القدر اليسير من الطعام ، وهو شارد الذهن تماماً ، مما دفع والدته إلى سؤاله :

– ماذا بك يا ولدى ؟

رفع إليها عينيه فى شرود، ودار فى أعماقه صراع قوى..

هل ينبغى له استشارة والديه فى الأمر ؟..

هل من الصَّواب أن يشركهما حيرته، ويبحث عندهما عن المشورة ؟.. أم أن الأفضل أن يحتفظ بحيرته لنفسه ؟..

قبل أن يصل عقله إلى جواب ، وجد نفسه يندفع ليقص عليهما القصة كلها ..

قص عليهما كشفه أن (نادية) تحبه ، ولكنه أخفى عنهما ما فعله بـ (فريال) فى مكتبه ..

ربما لأنه كان يشعر بالخجل من موقفه معها ..

استمع إليه والداه فى اهتمام ، حتى فرغ من حديثه، فساد الصمت بعض الوقت ، ثم قالت الأم :

– أصارحك القول إننى أحبُّ (نادية) هذه ، وأراها زوجة مناسبة لك يا ولدى .

قال الأب معترضاً :

– ينبغى أن يشعر أولاً بحبه لها ، فليس من العدل أن يتزوَّجها ، وهو لا يحبها ..

اشترك الوالدان فى نقاش جاد، دون أن يشاركهما (عماد)..

كانت الأم تقول فى حماس :

– لو أنها تحبه ، فستجبره على حبها بعد الزواج .

– وماذا لو لم يحدث هذا ؟

– مستحيل .. حسن المعاشرة يخلق الحبَّ دوماً .

– ربما كان هذا صحيحاً فى جيلنا، حيث لم يكن الزوجان يلتقيان إلا ليلة زفافهما ، أما الآن فالأمر يختلف .

– هذا ما يظنه أبناء الجيل الجديد؛ ولهذا تفشل معظم زيجاتهم.

– إنهم يؤمنون بضرورة الحبِّ قبل الزواج .

– ربما ، ولكنهم يغالون فى حبهم ، حتى أن بعضهم يصاب بصدمة قوية بعد المعاشرة ، عندما يزول قناع النوايا الحسنة ، ويبدو كل منهما على طبيعته .

– هذا لا يحدث كثيراً .

– هذا ما تظنه .. انظر لقصة (عماد) و (فريال) ، تجد فيها مثالاً واضحاً لما أقصده أنا .

– إذن فأنت توافقين على زواجه بها .

– بالطبع .

هتفت الأم بعبارتها الأخيرة فى حماس ، ثم التفتت إلى ولدها ، وقالت :

– صدّقنى يا ولدى ، لو أنك تزوَّجت فتـاة حسنة الخلق ، طيبة المعشر مثل (نادية) ، وتحبك أيضاً ، فستذوب فى حبها قبل أن يمضىَ شهر العسل .

شـعر (عمـاد) بمزيد من الحيرة أمام آراء والديه المتناقضة ، فغمغم :

– ربما يا أماه .

ثم أردف ، وكأنما اتخذ قراره :

– ولكن الانتظار لن يضيرنا كثيراً ، وربما أكشف ذات يوم أننى حقـًا أحبها ، أما الآن ....

بتر عبارته وهو ينهض ، وكأنه يعلن انتهاء الحديث ، وقال فى هدوء :

– سأذهب إلى حجرتى ، فأنا أحتاج إلى البقاء وحيداً بعض الوقت .

تابعه والداه ببصريهما وهو ينصرف ، ثم مالت الأم على زوجها ، وهمست فى حنان :

– أراهنك أنه سيتزوَّجها .

ابتسم فى أبوَّة ، وغمغم فى حنان مماثل :

– فليفعل الله ما فيه الخير .

صعد (عماد) إلى حجرته ، دون أن تخفت حيرته ، أو يقل تساؤله ..

نزع ثيابه فى آلية ، وارتدى منامته، ثم استلقى ساكناً فوق فراشه ، وعاد ذلك التساؤل الملح يملأ رأسه ..

هل يطلب (نادية) للزواج ؟..

إنه يعلم أنها إنسانة ممتازة ، تصلح زوجة مثالية، وأمًّا رائعة لأولاد فيما بعد، ولكن هل من الصَّواب أن يتزوَّجها قبل أن يتبين حقيقة مشاعره نحوها ؟ ..

خشى فى هذه اللحظة أن يكون مبعث ارتباطه بـ (نادية) هو الشفقة والعطف فقط ..

تذكر كم شعر بالثورة فى أعماقه، عندما قص عليه والد (فريال) ما فعله بها ..

ولكنها طبيعته ..

إن قلب النسر فى أعماقه يأبى الظلم دائماً ، ويبغضه .

إنه يتعاطف دوماً مع الضعفاء والمظلومين ..

زادت حيرته ، ولم يستطع حتى إغلاق جفنيه، وظل السؤال يدور فى رأسه فى إصرار وإلحاح :

– هل يحبها ؟!

* * *

١٣ ـ المـــرآة ..

تبدّلت نظرة (عماد) تماماً إلى (نادية) منذ ذلك اليوم ..

بدأ يشعر حقًّا بحبها له ، وتفانيها فى إسعاده ..

ولكنه لم يتأكد من حقيقة مشاعره نحوها حقًّا ..

لم يشعر بمثل هذا التردُّد ، وهذه الحيرة فى حياته مطلقاً ..

حتى عندما كان يشترك فى أصعب المناورات القتالية فى السابق ، لم يكن يتردَّد لحظة واحدة ..

كانت مهارته تعود إلى قدرته الفائقة على اتخاذ القرار ، ووضعه موضع التنفيذ فى جزء من الثانية ..

وفى عالم النسور ، قد يكون هذا الجزء من الثانية هو الفيصل ، بين الحياة والموت ..

لم يكن يتردد أمام الموت ، وها هو ذا يتردد أمام الحياة ..

أدهشه فى ذلك اليوم أن سألته (نادية) :

ـ ماذا بك ؟

رفع عينيه إليها فى دهشة ، وقال :

ـ ماذا تعنين ؟

قالت فى قلق :

ـ أنت تبدو شديد الحيرة .

أثارت كلماتها عجبه ..

هل تبدو حيرته واضحة إلى هذا الحدّ ؟..

أم أن حبّ (نادية) له قد جعله بالنسبة لها كالمرآة ، ترى فيها أعماقه ومشاعره فى سلاسة ؟..

ظل يحدِّق فيها لحظة ، ثم اغتصب ابتسامة وهو يقول :

ـ لا شىء بالتحديد ، ولكننى أفكر فى المشروع الجديد .

قالت (نادية) فى حماس :

ـ مشروع طائرات رش المبيدات .

أومأ برأسه إيجاباً ، فهتفت :

ـ لا تخش شيئاً بشأنه ، لقد درسه قسم الحسابات جيداً ، ووجده مشروعاً مربحاً للغاية .

ابتسم حينما شعر بحماسها من أجله ، واعتدل فى مقعده يقول :

– هل درست الأمر بنفسك ؟

أجابت بنفس الحماس :

– نعم .. وأنا أشعر بالتفاؤل به .

اتسعت ابتسامته وفتح شفتيه لينطق بشيء ما ، ولكنه لم يفعل ..

قبل أن ينطق بحرف واحد، انبعث صوت سكرتيره، عبر جهاز الاتصال الداخلى ، يقول :

– السيد (فتحى عبد السلام) يطلب مقابلتك ياسيدى .

تهللت أسارير (عماد) ، وهو يهتف فى حماس :

– لا تجعله يطلب الإذن بمقابلتى بعد الآن ، دعه يدخل إلى مكتبى فور قدومه ، لقد أصبح شريكى .

دخل (فتحى) منفرج الأسارير ، وصافح (نادية) وهو يقول فى مرح :

– كيف حالك يا (نادية) ؟.. هل تعلمين أننى أصبحت أتفاءل بوجهك ؟

ابتسمت وهى تطرق خجلاً ، فالتفت هو إلى (عماد) ، وصافحه فى حرارة ، قائلاً :

– لقد وصلت الطائرات ، وكذا الطيارون البولنديون ، الذين تعاقدنا معهم .

(عماد) فى حماس :

– أحقًّا ؟!

صاحت (نادية) فى فرح :

– تقبَّل تهنئاتى يا (عماد) .

لوَّح (فتحى) بكفه ، وقال فى حماس مماثل لحماس (عماد) :

– هيا أيها المدير .. سربك الخاص ينتظر أوامرك للإقلاع .

ضغط (عماد) زرّ الاتصال الداخلى ، وقال لسكرتيره فى حماس وانفعال :

– الغ جميع مقابلاتى اليوم، فأمامى عمل خارجى هام .

ثم صاح لـ (فتحى) :

– هيا بنا يا شريكى العزيز .

تحرَّك فى خطوات سريعة نحو (فتحى) ، ثم توقف فجأة ..

تردَّد لحظة ، ثم التفت إلى (نادية) ، وابتسم وهو يقول :

– هيا بنا يا (نادية) .

لم تستطع (نادية) إخفاء فرحتها ، وهى تهتف :

– هل تريدنى أن أرافقكما ؟

اتسعت ابتسامته ، وامتلأت بحنان أثلج صدرها ، وهو يقول :

– بالطبع .. ألم تسمعى ما قاله (فتحى) ؟.. إننا نتفاءل بك .

موقفه هذا أثار فرحها ، وحيرتها معاً ..

لم تفهم ما إذا كان يتفاءل بوجهها فقط ، أم أنه يريد منها أن تشاركه هذه اللحظة ، التى يبدأ فيها عملاً جديداً ..

كانت قد لاحظت تغييراً واضحاً فى معاملته لها ، منذ أول لقاء له مع (فتحى) ، ولكنها لم تفهم سبب هذا التغيير ..

كانت نظراته لها منذ ذلك اليوم تحمل مزيجاً من القلق ، والترقب ، والحيرة ..

كان أسلوبه معها يختلف ..

حاولت أن تبحث عن سبب واضح لهذا التغيير دون جدوى ..

حتى وهى تجلس فى المقعد الخلفى لسيارته ، وهو ينطلق بها ، وإلى جواره (فتحى) ، إلى حيث تقبع الطائرات الجديدة ، كانت تلاحظ أنه يختلس النظر إليها فى المرآة الأمامية لسيارته ، وعيناه تحملان النظرة ذاتها ..

أربكتها نظراته ، وبعثت فى نفسها الحيرة ، وسألت نفسها :

– ماذا تعنى نظرته هذه ؟

هو أيضاً كان يفكر بشكل يمتلئ حيرة وقلقاً فى هذه اللحظة ..

كان قد سئم التردُّد والتفكير ، وقرَّر أن يتخذ خطوة حاسمة فى الأمر ..

مرأى وجهها فى مرآة السيارة بعث فى نفسه ارتياحاً غامراً ..

سأل نفسه :

– لماذا لا أتزوَّجها ، ما دامت زوجة مناسبة ؟..

تذكر أن والده لم يكن يحبّ والدته قبل الزواج ، ولكنهما كانا مثالاً للزواج الناجح الجميل ..

كانت (نادية) تذكره بوالدته، فى سماحتها، وطيبتها ، وحنانها ..

لا ريب أن حسن المعاشرة يؤدى إلى الحبّ حقًّا ، كما تقول والدته ..

قرّر فى هذه اللحظة أن يطلبها للزواج ، وليأت الحبّ فيما بعد ..

لم يكن قراره هذا مرضياً له ، ولكنه كان إنهاءً لحالة القلق والحيرة ، التى تنتابه منذ علم بحبها له ..

كاد يسألها الزواج فى اللحظة ذاتها ، لولا وجود (فتحى) ، فقرّر أن يسألها ذلك فور عودتهما ..

كان غارقاً فى أفكاره، عندما هتف (فتحى) فى مرح :

– هاهو ذا سربنا يا شريكى العزيز .

نسى (عماد) فى هذه اللحظة كل شىء عن (نادية) ، واختلج قلبه مع مرأى الطائرات ، التى تبرق تحت ضوء الشمس ..

بدا كالمسحور ، وهو يوقف سيارته إلى جوار الطائرات ، ويهبط منها واللهفة تملأ كيانه كله ..

لم ينتبه إلى تحيات الطيارين البولنديين له، وهو يسير مشدوهاً نحو الطائرات ..

غمغمت (نادية) فى قلق :

– ماذا أصابه ؟

ابتسم (فتحى) ، وربّت على كتفها ، وقال :

– إننى أفهم ما يشعر به يا (نادية) .

ثم أردف فى حنان :

– لا تنسى أنه نسر .

تابعته(نادية) ببصرها فى قلق، وهو يقف أمام إحدى الطائرات مأخوذاً ، وعقدت حاجبيها فى دهشة ، عندما رأته يربّت على جسد الطائرة ، ويهمس لها بكلمات لم تفهمها ..

أسرعت الخطا إليه ، وابتسمت فى قلق ، وهى تغمغم إلى جواره :

– هل تعجبك ؟

أدهشها أن أشار إلى مقدمة الطائرة ، وقال فى حنان عجيب :

– ينبغى أن يكون هناك نسر مفرود الجناحين .

سألته فى حيرة :

– أيرمز ذلك إلى اسم الشركة ؟

تألقت عيناه، وهو يقول فى حماس :

– بل يرمز لسطوة النسور فى السماء .

عجيبة هى قلوب النساء ..

لقد شعرت (نادية) بالغيرة من الطائرة ..

شعرت بالغيرة من كتلة من المعادن والآلات ..

بدت لها الطائرة فى هذه اللحظة غريمة لا يستهان بها ..

كم حسدت الطائرة على تلك النظرات المتألقة بالحب والحنان ، والتى يرمقها بها (عماد) !!..

كم تمنت لو أنه منحها يوماً نظرة واحدة منها !!

انتزعها من أفكارها صوت أحد الطيارين البولنديين ، يقول بالإنجليزية :

– هل أعجبتك الطائرات أيها القائد ؟

انتفض (عماد) وكأنه يفيق من حلم عميق ، واستدار إلى الطيار البولندى فى ذهول ، ثم لم يلبث أن هتف :

– إنها رائعة .. رائعة .

ثم استدار يواجه مجموع الطيارين، ويسألهم فى حماس :

– هل تطيعكم طائراتكم أيها النسور ؟

هتفوا جميعاً بالإيجاب ، عدا أحدهم ، فقد تردَّد لحظة ، ثم قال :

– أعتقد أن طائرتى لا تستجيب بالقدر الكافى أيها القائد .

هتف (عماد) فى جزع :

– كيف ؟

قاده الطيار إلى الطائرة ، وهو يقول :

– إن محرِّكها يصدر صوتاً عالياً بعض الشىء .

تأمل (عماد) الطائرة فى لهفة وأسى ، كما يتأمل الحبيب محبوبته المريضة ، وفجأة توقف بصره عند نقطة فى مقدمة الطائرة ، وشعر بقلبه يدقُّ فى عنف ..

كان الطيار البولندى قد أضاف لطائرته رسماً يمثل نسراً مفرود الجناحين ، تطل من عينه نظرة حماسية بالغة..

اندفع (عماد) نحـو النسر المرسوم ، يتحسَّسه فى شوق ، أعاد إليه كل حنين النسور إلى السماء ، ثم أسرع ينتزع سترته ، ويشمر عن ساعديه ، وهو يهتف فى حماس :

ــ لا تترك طائرتك مريضة أبداً أيها النسر .

لم تتدخـل (نادية) ، ولم ينطـق (فتحى) بكلمـة واحدة ، عندما انهمك (عماد) مع الطيار البولندى فى إصلاح محرِّك الطائرة ، غير مبال بحُلته الأنيقة ، باهظة الثمن.

وقفت (نادية) تتأمله فى دهشة ، وكأنها ترى رجلاً آخر ..

رجلاً غاص حتى النخاع ، فى عمل استغرق حواسه كلها ..

رجلاً هو فى أعماقه نسر ، يضرب بجناحيه فى سماء أحلامه .

انتهى (عماد) والطيار من إصلاح محرِّك الطائرة ، فهتف (عماد) فى فخر :

ــ لقد انتهت آلامها يا رجل .

وقف يتأمل سطح الطائرة اللامع فى نشوة ..

لم ير صورته المنعكسة على سطحها ، وقد تهدَّلت خصلة من شعره الأسود على جبينه ، فزادت من وسامته..

رأى وجهه كما كان منذ عام وبضعة أشهر ..

خيل إليـه أنه ينظر فى مرآة تعكس صـورته بزيه الرَّسمى ، والنسر اللامع على كتفيه ..

كان مبهوراً أمام الطائرة ، حتى أن (نادية) عادت تغمغم فى مزيد من القلق :

ــ يا إلهى !! ماذا أصابه ؟

عقد (فتحى) ذراعيه ، وقال وهو يتأمل (عماد) :

ــ دعيـه يفرغ عواطفـه يا (نادية) .. هـذا أكثر فائدة له .

ارتفع فجأة صوت الطيار البولندى ، وهو يقول :

ــ أعتقـد أنهـا قد أصبحت صالحة ، ولن يمكننى الجزم قبل تجربتها .

تألقت عينا (عماد) فجأة بفيض من الحماس ، وقال فى حزم :

ــ كلا يا صديقى .. سأقودها أنا هذه المرَّة .

* * *

١٤ ـ وسط السحاب ..

خفق قلب (نادية) فى ذعر ، عندما نطق (عماد) بعبارته ، وشعرت بجسدها ينتفض ، وبلسانها ينعقد ، فيعجز عن النطق ، على حين هتف (فتحى) فى قلق :

ـ ماذا تقول يا صديقى ؟.. دع هذا العمل للرجال الذين تعاقدنا معهم من أجله .

ابتسم (عماد) ، وهو يقول فى حماس :

ـ سأقوم أنا بهذا العمل يا صديقى .

انقبض قلب (نادية) ، وهتفت فى ذعر :

ـ كلاً يا (عماد) .. أرجوك .

نظر إليها (عماد) فى دهشة ، ثم ضحك وهو يقول فى ثقة :

ـ ماذا يقلقكما ؟!.. إنها طائرة رش مبيدات ذات محرِّكين ، إننى أستطيع قيادتها وأنا مغمض العينين .

ثم أردف ضاحكاً :

ـ ثم إننى لم أزل أمتلك ترخيص الطيران .

لم تكن هناك قوة فى الأرض بقادرة على منع (عماد) ، من تنفيذ ما اعتزمه ..

كان هذا قدره ، أو هو قدر (نادية) ، التى انتفض قلبها وهى تراه يتخذ مقعده داخل الطائرة الصغيرة ، وانسالت دمعة ساخنة من عينيها ، حينما أدار محرِّكيها ..

لم يشعر (عماد) بعذاب (نادية) وحيرتها ..

كانت عروقه كلها تنبض بالسعادة ، وهو ينطلق بالطائرة الصغيرة فى الممر الترابى الطويل ، وسط الحقول الخضراء ..

لم تكن هذه الطائرة تشبه ، بأى حال من الأحوال ، طائرته المقاتلة فى السابق ..

ولم يكن الممر الذى تنطلق فيه ، يشبه تلك الممرّات الممهدة فى قاعدة التدريب ..

ولكن (عماد) كان يشعر بنشوة لا تعادلها نشوة ..

كان يشعر أنه عاد نسراً يخفق بجناحيه ..

ارتجف جسده كله فى نشوة ، عندما ارتفعت الطائرة فى السماء ..

لا يوجد مخلوق واحد فى العالم أجمع ، يمكنه أن يصف مشاعر (عماد) فى هذه اللحظة ..

هو نفسه لايستطيع أن يصف كل هذه السعادة فى أعماقه ..

لقد صعد بالطائرة يشق بها أجواز السماء ، كنسر ينعم بجناحيه ، بعد أن طال افتقاده لهما طويلاً ..

نسى لحظة أنه يقود طائرة صغيرة ، فزاد من سرعتها ، وانطلق بها عالياً وسط السحاب ..

زأرت الطائرة الصغيرة فى ألم ، وهى تبذل مجهوداً يفوق الإمكانات التى صنعت من أجلها ، ولكنها أطاعت .

هؤلاء الذين يقفون بأقدام ثابتة على الأرض ، هم من تولاهم الفزع ..

ارتجفت قلوبهم ، وهم يشاهدون ما يفعله (عماد) بالطائرة الصغيرة ..

كان (فتحى) أكثرهم قلقاً ..

ربما لأنه أكثرهم علماً بالطيران ومخاطره ..

لم يستطع كتمان مخاوفه ، وهو يغمغم :

- يا إلهى !! ما الذى يفعله هذا المجنون ؟

تعلقت (نادية) بذراعه ، بأصابع مرتجفة ، وصرخت فى ذعر :

- هل يتعرَّض للخطر ؟

غمغم (فتحى) ، وهو يتابع الطائرة الصغيرة فى قلق:

- ليس بعد ، ولكنه يسند إلى الطائرة مايفوق قدراتها ..

ارتعد جسد (نادية) ، وازدادت تشبثاً بذراع (فتحى) ، وهى تهتف بصوت مرتجف :

- ينبغى أن نمنعه .. ينبغى أن نفعل .

هزَّ (فتحى) رأسه ، وقال فى أسف :

- لم يعد بإمكاننا ذلك .

ثم أشار إلى الطائرة ، التى بدت كنقطة صغيرة وسط السحاب ، واستطرد :

- هو وحده يملك أمره هناك .

نعم .. هو وحده يملك أمره ..

ولكن القدر يملكهما معاً ..

لقد نسى (عماد) كل شىء وهو يميل بطائرته يمنة ويسرة ..

نسى عمله ، وآماله ، وأحلامه ..

نسى (نادية) ، و (فريال) ، و (فتحى) ..

نسى الدنيا ، وشركة السياحة ، ومشروع طائرات رش المبيدات ..

نسى كل شىء ، إلا أنه يطير بين السحاب ..

وفجأة .. تناهى إلى مسامعه ضجيج غير مألوف ، يتصاعد من محرّك الطائرة ..

ضجيج جعله يعقد حاجبيه ، ويغمغم فى قلق :

– يا إلهى !! ماذا يحدث ؟

كان يعلم بخبرته ما أصاب طائرته ..

وكان ما أصابها كفيلاً ببث الرُّعب فى أشد القلوب بأساً ..

وهناك على الأرض ، صرخ أحد الطيارين البولنديين :

– يا للسماء !! لقد فقد السيطرة عليها .

وصرخ (فتحى) فى ذعر :

– يا إلهى !! (عماد) .

احتبست الكلمات فى حلق (نادية) من شدة الرُّعب ، ورفعت عينيها المذعورتين إلى السماء ، ولم تكد تفعل حتى صرخت بكل ما فى أعماقها من قوّة ولوعة ..

هناك بين السحاب كان حبها ينهار ..

كانت أحلامها تتلاشى ..

كانت طائرة (عماد) الصغيرة تهوى ، كطير فقد جناحيه .

* * *

١٥ – النهاية ..

ترنحت (نادية) كطير ذبيح ، وهى تلمح الطائرة الصغيرة ، التى تهوى فى سرعة ..

لم تستطع احتمال المشهد ..

كانت هذه الطائرة الصغيرة تحمل كل ما يعنيها فى الحياة ..

تحمل أملها ، وحلمها ، وحبها ..

تحمل الرجل الوحيد فى هذا العالم ، الذى منحته قلبها ..

خيل إليها أن هذا القلب كاد يتوقف ، من شدة يأسها ولوعتها ..

أخفت وجهها بين كفيها ، وتراجعت تستند إلى مقدمة سيارة (عماد) وهى تبكى ..

كانت تظن أن عذابها قد انتهى بقربه ، فإذا بها تشهد أشد لحظات حياتها عذاباً ..

كانت تخفى وجهها بين كفيها ، وتنخرط فى بكاء

عنيف ، عندما سمعت هتافاً قويًّا ، ينطلق من حناجر الطيارين ..

رفعت كفيها عن وجهها ، وتطلعت إلى السماء ، ولكنها لم تفهم شيئاً ..

كانت طائرة (عماد) تنزلق فى نعومة فوق الهواء ، وهى تقترب من الأرض ..

ولكنها رأت ابتسامة ارتياح على وجه (فتحى) ، وسمعت أحد الطيارين يهتف فى حماس :

– إننى لم أشهد عرضاً أروع من ذلك .

اختلج قلبها فرحاً ، وهى تسأل (فتحى) :

– هل نجا ؟.. أخبرنى بالله عليك .

كانت عجلات الطائرة الصغيرة تمس أرض المهبط الترابى فى رفق ، عندما هتف (فتحى) فى إعجاب وسعادة :

– لقد لقنهم (عماد) درساً فى فنون الطيران .. لقد توقف محرِّك طائرته بين السحاب ، فتعامل معها

كما لو كانت طائرة شراعية ، من طائرات التدريب[٥] ، وهبط بها بأبرع أسلوب شاهدته فى حياتى كلها .. لقد أثبت مرة أخرى أنه نسر ، بل إن النسور الحقيقية لتحسده على براعته هذه المرَّة .

لم تصدِّق (نادية) أذنيها ..

لم تصدِّق ما سمعته ، إلا عندما رأت (عماد) يهبط من الطائرة الصغيرة ، سليماً معافى ، وسط هتافات الإعجاب ..

عندئذ فقط انفجرت بالبكاء ..

ولكن دموعها هذه المرَّة ، كانت تحمل كل سعادتها وحبها ..

لم يعد يهمها الآن أن يحبها (عماد) ، أو لا ..

لم يعد يهمها سوى أنه نجا ..

كانت دموعها تملأ عينيها ، عندما رأته يندفع نحوها مبتسماً ..

---

(٥) الطائرة الشراعية : هى نوع من الطائرات بدون محرك ، تقلع دائماً عن طريق طائرة أخرى ، ثم يهبط بها قائدها معتمداً على تيارات الهواء وحدها ، وهى تستخدم عادة فى التدريب .

قبـــل أن تنطق بكلمة واحــدة ، وجـــدت كفيها الصغيرتين فى قبضتيه القويتين ، وسمعته يهتف فى انفعال صادق :

– أنا أحبك يا (نادية) .. أحبك .

انتفض جسدها للكلمة التى طالما تاقت إليها من شفتيه ..

لم تكن تتوقع أن تسمعها فى هذا الوقت أو المكان ، أو حتى تلك الظروف ..

خيل إليها أن أذنيها تخدعانها ، ولكنه كرَّر فى فرح :

– (نادية) .. أقول إننى أحبك ، من كل قلبى .

همست فى صوت مرتعد :

– (عماد) !.. ماذا تقول ؟

هتف فى سعادة :

– أقول ما أومن به حقًّا يا (نادية) .. أنا أحبك .

تجمدت الدموع فى عينيها ، وهى تنظر إليه فى ذهول ، فاستطرد فى حماس :

– أنت لا تعرفين طبيعة النسور يا (نادية) .. إنهم حينما يواجهون خطر الموت ينسون أنفسهم تماماً ، ولا يذكر الواحد منهم سوى أحبِّ الناس إلى قلبه .

ثم أشار إلى السماء ، متابعاً فى انفعال :

– وهناك .. وأنا أرى الموت بعينى بين السحاب ، لم يكن فى رأسى وقلبى غـيرك يا (نادية) .. تأكدت لحظتها أننى أحبك .. أحبك بكل مشاعرى وأحاسيسى ، بل إن حبك كان دافعى الوحيد للإصرار على الهبوط سالماً .

عادت الدموع تنسال من عينيها ، وهى تغمغم فى سعادة لا توصف :

– (عماد) ..

رفع كفه يمسح دموعها ، وهو يقول مبتسماً :

– كلاً يا (نادية) .. لا دموع بعد اليوم .

أراحت وجنتها على كفه ، وهى تقول فى سعادة :

– إنها دموع السعادة يا (عماد) .. لم أصدِّق أنك تشعر بى أخيراً .

همس فى أذنها بحبٍّ وحنان :

– ستكون سعادتنا دائماً بلا دموع يا حبيبتى .. إننى لم أعد أشعر بأحزانى السابقة .. لقد عدت نسراً ، وحظيت بأرق إنسانة فى الوجود ..

ثم أردف فى وله :

– (نادية) .. هل تقبلينى زوجاً ؟

ارتفعت دماء الخجل إلى وجنتيها ، وتألقت السعادة فى عينيها وهى تهمس :

– هل تسألنى ؟..

مالت الشمس إلى الغروب ، وامتـد فوق الأرض الخضراء ظل لطائرين يحلقان معاً فى سماء الحبّ ..

طائران بلا أجنحة ..

* * *

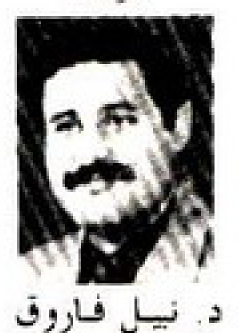
[تمت بحمد الله]

رقم الإيداع : ٧٨٤٨



سلسلة رومانسية رفيعة المستوى

المؤلف



د. نبيل فاروق

السلسلة الوحيدة التى لا يجد الأب
أو الأم حرجا من وجودها بالمنزل



طيور بلا أجنحة

(عماد) نسر من نسور
القوات الجوية ، وجد نفسه
فجأة وقد لفظته سماء النسور ، وطال
عذابه بين آلامه ، وبين (فريال)
و (نادية) .. كان عليه أن يقاوم
هذا العذاب ، أو يعيش عمره
كله طائرًا بلا أجنحة .

الثمن فى مصر
وما يعادل دولارًا أمريكيًا فى سائر الدول العربية والعالم